daralmoltaqa@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك: 978-977-85411-0-6
رقم الإيداع القانوني: 2018/16101

ملتقى المعرفة

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: شركة أرابيسك (الحلول المتكاملة للتقنية والتصميم) arabisq1@gmail.com

القاهرة / مصر

جوال: 00201278821670
00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com

أسماء ونان

سلة خانة

ملتقى المعرفة

daralmoltaqa@gmail.com

إهداء

إلى جدتي أم أبي " فهيمة " ، لم أنسى أبدًا يوم أن التقينا في حديقة الأزهار في تلك الرؤيا، لن أنسى أبدًا زهرتك التي أهديتني إيّاها .. ما زلت على عهدي معك .. ما زلت أحبك رغم السنين، ورغم ضمة القبر لك .. سأظل فتاتك الصغيرة المُدللة إلى أن يجمعنا الله في الجنة .. أهديكِ هذه الرواية، لك وحدك، ولروحك الجميلة التي لم تفارقني أبدًا...

أسماء وناس

daralmoltaqa@gmail.com

الفصل الأول

(منحة)

أصوات هرْجٍ بالمشفى، الكلُّ يجلس خارج غرفة المرضى في شغف؛ لانتظار المولود الجديد على أحرّ من الجمر، طفلان يجلسان بجوار والدهما، والذي لا ينفك ينظر في الساعة، امرأة عجوز قاربت على السبعين من عمرها جالسة على مقربة منه تُرَبِّتُ على كتفه بهدوء لطمأنته، ثم أمسكت بيده حتى لا ينظر إلى الساعة، وقالت: (كفى يا بني، يكفيك النظرُ إلى الساعة كلّ دقيقة، انتظر سيخرج الطفل إلينا).

نفخ زفيرًا وهو يُبعد يدها: (أنا هادئٌ يا أمي، يكفي طفلان، لِمَا طفل ثالث؟! ثُم إنَّ وقتيَ ثمين جدًّا، وانتظاري هنا لا يجدي نفعًا، فلما لا تلد وتجلب الطفل إلى المنزل فقط؟!).

أشاحت الأم بوجهها عنه وهي تتمتم بكلمات: (لن تتغير يا كاظم، ما زلت غليظ القلب كعادتك، ربما لهذا لم يعطك الله فتاة، حمدًا لله على الفتيان، فالله أعلم كيف ستتعامل معها؟).

عضَّ على شفتيه وهو يجيبها: (آه، لو جاء المولود فتاة، لا أعلم ما عليَّ فعله، فأنا في غنى عن الفتيات ومشاكلهن التي لا تنتهي، وحاجتهن للحماية المستمرة).

قالها، ولم تجبه أمه، فالصمت أجابه، يبدو أنها فقدت الأمل في تغييره فالتزمت الصمت كشعور أفضل من النحت في جدار من الماء.

بضع لحظات وخرجت الطبيبة، وهي تخلع القفازات وتلقي بها في سلة المهملات، وترفع الكمامة عن وجهها، وتقول: (مبارك عليك سيد كاظم، لقد رزقك الله بفتاة جميلة).

إحمرَّ وجهه غيظًا، وهو يقول: (فتاة)!.

ضحكت أمه، وأمسكت بالفتية الصغار، ودخلت إلى غرفة الطفلة المولودة، ووالدتها التي يبدو عليها الإعياء من تعب الولادة، ثم اقتربت منها وهي تهنئها، وحملت الطفلة في هدوء، وهي تنظر إليها في سعادة: (كم كنت أتمنى أن يعطيني الله فتاة، ولكني لم أرزق إلا بكاظم، وها هو حُلمي يتحقق في ابنته، ولدي... يا لها من جميلة!).

ثم وضعتها بجوار أمها، والتي كانت قد غطّت في نوم عميق من الإعياء، ثم خرجت والأطفال في يدها؛ لتجد كاظمًا خارجًا من غرفة الطبيبة، والشرر يتطاير من عينيه، وضعت يدها على قلبها، فقد شعرت أن هناك أمرٌ ما، فوجه ابنها لا يبشر بخير أبدًا، اقتربت منه وهي خائفة: (ماذا هناك يا ولدي؟!).

(إنها الفتاة يا أمي، لم يكفني أنها فتاة، بل إن الطبيبة تشكُّ أن بها علةً ما، وعلينا أن نذهب بها إلى طبيب أطفال أيضًا، ألا يوجد في مشفى الولادة هذه أيَّ طبيب أطفال حتى نستريح من الذهاب والإياب؟).

اضطربت الأم وشعرت بحزن شديد، ولكنها أصرَّت أن تذهب مع ولدها إلى الطبيب لتطمئن على الفتاة، وتركت الأطفال الصغار مع

خالتهم، التي جاءت لزيارة أختها، الطريق مزدحم وهي تنظر لولدها الذي ما زال يتتبع الساعة ببصره، وهي ممسكة بابنته الصغيرة، التي لم تكد تفتح عينيها بعدُ، ذاهبين بها إلى طبيب الأطفال كما طلبت منهم الطبيبة التي قامت بتوليدها، ثم هدأ الطريق قليلًا، ووصلت السيارة بهم إلى مبتغاهم.

وصلا إلى عيادة طبيب الأطفال، وبدأ يتفحص الصغيرة، ثم أعطاها للجدة، وجلس على مكتبه، ثم تنهد وهو يحاول أن يخرج ابتسامة مصطنعة، ثم قال: (الحقيقة يؤسفني أن أبلغكم أن الفتاة بكماء، ربما عليكم التوجه لطبيب مختص في هذه الأمور، فأنا لا أجد استجابة منها لي، وقد تأكدت بفحصها).

أجاب الأب، وقد كسى وجهه الحزنُ وعدم الرضا، وهو يتبادل مع أمه نظرة حزن وأسى، ثم قال: (حسنًا يا أمي، إنها أمنيتك التي تحققت، ولكنها أمنية مبتورة، فهنيئا لك شرًّا تمنيتيه لي).

ثم خرج من غرفته، وترك أمه والتي احتضنت الفتاة، وهي تبكي ألمًا من حديثه، ثم خرجت وراءه، ورغم كبرها في السن إلا أنها انتصبت في مشيتها، وهي حاملة الطفلة غير مبالية لعمودها الفقري، الذي به التواءات جعلتها تعرج في مشيتها، جراء التقدم بالعمر، وعوامل الزمن الذي مضت عليه لتأكل من صحتها وشبابها، وتحولها لتلك العجوز المسكينة التي لا حول لها ولا قوة، حتى يأتي ابنها ليكمل ما بقي من صحتها بأفعاله المشينة، حاولت أن تلحق بولدها لكنه سبقها، فجلست على كرسي وجدته لتريح جسدها المنهك، ثم همست في أذن الفتاة قائلة: (لا تحزني يا صغيرتي، فرُبَّ محنة يهبنا فيها الله منحة.. اعلمي

أن عمري لن يطول حتى أراك يافعة، ولكني سأكون معك دائمًا، ولن أترككي إلا أن يفرقنا الموت).

أخذ الممرضات الفتاة الصغيرة من الجدة، وأودعوها حجر أمها، والتي ما أن علمت بعلة فتاتها الصغيرة حتى أصبحت لا تنفك عن البكاء قبل مغادرتهم، اقتربت منهم الممرضة سائلة إياهم عن اسمها لإدراج الاسم في الكشوفات، فتوجهت أم الطفلة بناظريها، والتي كانت لا تقوى على النظر من كثرة الدموع إلى الأب الذي لم يكترث، وقال في عدم اهتمام: (نسميها أيَّ اسم، لا يهم، اختاري اسمًا للفتاة، ودعينا ننتهي من هذه العطلة، فأمامي عمل طويل مؤجل).

فبكت زوجته وهي تنظر للطفلة، ولا تستطيع النطق.. اقتربت الجدة من الممرضة، وهي مبتسمة كعادتها وقالت: (سنسميها نورسين يا ابنتي، اكتبي عندك بالكشف: نورسين كاظم).

قضب ولدها عن حاجبيه: (وما معني هذا الاسم الغريب يا أمي؟).

أجابته، وهي تحدق في الطفلة وتهدجها بنظراتها الحنونة: (إنه ضوء القمر.. الضوء الذي سيكسر ظلام لياليك وينيرها يا كاظم، إن شاء الله).

مرت السنون حتى بلغت الطفلة عامها السابع، كانت تتعامل بالإشارة؛ لا تسمع ولا تجيب، لكنها تفهم الكلام ذكية وجميلة، كانت أمها مشغولة في إعداد الطعام والذهاب مع الإخوة الصبية إلى النوادي الرياضية، التي كانوا ملحقين بها، أما الطفلة فقد كانت أغلب الوقت مع الجدة التي كانت تقطن معهم في البيت، وقد أصبحت أكثر وَهْنًا وعجزًا، مع تقدم العمر بها، حتى مرضت مرضًا شديدًا.

بالطبع ولدها كاظم لم يكن لديه وقت للجلوس معها كعادته، ولا زوجته -أيضًا- التي كانت منهمكة تمامًا في أعباء المنزل وتربية الصِّبْيَة، فقاما باستئجار ممرضة لتداويها في المنزل، فلا وقت لديه لوضعها بمشفى والذهاب إليها.

لم يكن يشعر بتلك العجوز المسكينة إلا الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس بجوار سريرها دائمًا، وهي خائفة أن تفقدها، أن تفقد آخر أمل لها، مُلْهِمَتَهَا، بل أمها الحقيقية التي عاشت في كنفها، ولم تشعر بأن بها اختلافًا أبدًا، كانت هي معلمتها ومربيتها، وكل شيء في حياتها، حتى أن الأم لم تهتم لتعطي الطفلة ما يسمى بالمهارات الحياتية التي يأخذها الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة حتى تمكنهم من التواصل مع العالم الخارجي الموحش، الذي يعيشون فيه بل كانت الجدة هي من تذهب بها إلى تلك المراكز الخاصة لتدريبها، حتى أنها تعلمت لغة الإشارة، وكانت تتواصل معها رغم كبر سنها إلا أن تواصلهما سويًّا كان رائعًا، وكأن الطفلة تتحدث والجدة تسمعها، كان حضن الجدة هو الكون كله بالنسبة لنورسين الصغيرة.

حتى جاء هذا اليوم الذي كان عاديًا كغيره، حين نامت فيه الطفلة بجوار جدتها وهي تحتضنها، وهامت بخيالها في عالم الأحلام الجميل، التي تشعر فيه بأن حياتها موجودة وأنها ملكة لهذا العالم وحدها.

حين حلَمت حِلمًا غريبًا؛ حيث كانت جدتها واقفة في حديقة غنَّاء من الأزهار الجميلة الملونة التي تحيط بها، فاقتربت منها وهي تتلفت في كل اتجاه إلى الأزهار، التي لم تشاهد في جمالها من قبل،

وكانت الجدة تقلم الأشجار، فما أن رأت الطفلة حتى شعرت بسعادة اهتز لها كيانها وصرخت في سعادة: (نورسين، أهذا أنت حقًّا؟!).

أجابت الطفلة: (نعم يا جدتي، لقد وجدتك هنا في هذا المكان الجميل بالصدفة.. يا إلهي، أنا أتحدث، هل هذا حلم أم حقيقة؟!).

اقتربت الجدة من الفتاة، ووضعت يدها على وجنتيها، وهي تنظر لها وقد لمعت عيناها من السعادة: (اعلمي أنه حلم، ولكني لم أكن لأعلم أنك تملكين موهبتي، وكم أنا سعيدة يا صغيرتي الجميلة بلقائك هذا في ذلك الحلم الجميل، نستطيع أن نلتقي هنا دائما إن احتجتني).

(وما هذا المكان يا جدتي).

أشارت الجدة بيدها تجاه كل شيء وهي تضحك: (إنها أرض الأحلام والأمنيات يا فتاة، تستطيعين أن تكوني ما تريدين هنا).

نظرت الفتاة بعيدًا.. كان هناك باب غريب خشبي، لا ألوان فيه، يخرج منه بعض الدخان، فأشارت إليه سائلة جدتها: (وما هذا الباب يا جدتي؟).

احتضنتها، وكأنها تخطفها، وقالت وهي ترنو منها: (لا تقربي هذا الباب أبدًا، يمكنك أن تكوني سيدة الأحلام، ولكن ابتعدي عنه يا صغيرتي، هذا رجاء من جدتك العجوز، أريدك أن تعديني).

نظرت الصغيرة إلى جدتها نظرة مرتابة، وهي تشعر بغرابة طلبها، ثم قالت:

(نعم، أعدك ألا أقربه).

أفاقت نورسين من النوم، ووجدت جدتها تنظر إليها في صمت، والابتسامة على وجهها، وأمسكت بيدها، وهي تُرَبِّتُ عليها رغم أنها بكماء، إلا أنها تقرأ لغة الشفايف، فالجدة أجادت تعليمها جيدًا: (أتدرين، لم يكن حلمك فقط يا فتاة، لقد شاهدتك في أرض الأحلام).

تعجبت الصغيرة، وأشارت إليها: (وكيف شاهدت حلمي يا جدتي؟).

أجابتها الجدة بسعادة: (إنها هبة يا صغيرتي منَّ الله علَيَّ بها، ولكن تلك الهبة امتلكتها وأنا أكبر منك، وقد كنت ناضجة، ولكنك ما زلت صغيرة على أن ترثيها مني، تلفتت الجدة يمينًا ويسارًا، وهي تهمس للفتاة التي تعلم جيدًا أنها تفهمها).

احترسي جيدًا، فتلك الهبة تحمل في طياتها وجهين متناقضين؛ تحمل هبة ونقمة في ذات الوقت، احترسي يا فتاة، ولا تنسي ألا تدخلي تلك الغرفة كما أخبرتك).

كانت نورسين صغيرة جدًّا على استيعاب حديث جدتها، فأحتضنتها وأشارت إليها: (هل ستموتين وتتركيني؟).

قالت الجدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع: (ومن منا لن يموت يا طفلتي، المهم العمل الصالح، فهو فقط الباقي، اعلمي عندما اسميتك بهذا الاسم، أنك ستكونين ذا شأن كبير، وأنا أثق بك).

بعد بضعة أيام اقتربت الجدة من الموت، وشعرت بدنو أجلها، فأشارت للصغيرة أن تأتي إليها، وجعلت الممرضة تساعدها في خلع عقد ذهبي به فصٌّ أزرق صغير من الألماس، كانت ترتديه حول رقبتها.. اقتربت منها الصغيرة، فخلعته وجعلتها ترتديه، ونظرت لها

وهي تقول – وتعلم أن الطفلة تفهمها–: (إنه لك، لقد احتفظت به منذ أعطتني إياه جنِّية الأحلام).

أشارت لها الطفلة بأصابعها، وهي تحدثها بلغة الإشارة: (وهل هناك جنِّية للأحلام).

سكتت الجدة، وهي تتحسس الصغيرة، وهي مرتدية العقد، وقالت لها: (كل شيء ستعرفينه في أوانه يا طفلتي، ما زلتي صغيرة الآن، لا تنسي إن أردت مقابلتي ستجديني في تلك الحديقة، لا تفقدي طريقها، ولا تقربي من الباب الذي أشرت إليك به مهما حدث، لا تنسي وعدك لي).

أخذت الجدة تسعُل وتسعُل، هرولت الممرضة، وأبعدت الفتاة، ووضعت جهاز التنفس بسرعة، وأوصلته بها ولكن الجدّة لم تفق أبدًا، كانت هكذا لمدة ثلاث ليال، لا تقوم من نومتها التي تبدو أنها النومة الأبدية التي لن تفيق منها أبدًا أما الفتاة الصغيرة فقد كانت دائما بجوارها تحاول أن تحدثها، وتجعلها تفيق من رقدتها هذه، ولكن الجدة لا تفيق ولا تجيب، فحاولت أن تنام علَّها تجدها في أحلامها لكنها فقدت المكان الذي شاهدتها فيه، ولم تعد تراها حتى جاء أجلها، وماتت الجدة.

شعور قاتل، أن تبكي بدون صوت، أن تتمزق من الداخل ولا تسعفك إلا الدموع، كيف لطفلة أن تشعر بتلك الأحاسيس وهي ما زالت صغيرة عليها، كان لفقدها جدتها أكبر أثر في حياتها، وكأنها اختطفت إلى جزيرة بعيدة عمَّن تحب لتعيش وحدها فيها.

احتضنت الأم ابنتها الصغيرة، وهي تمسح الدموع عن وجهها، وتحاول مواساتها، لكن الجدة دفنت في تلك الليلة، وعاد كل شيء

كما كان؛ هي وحيدة في عالم الصمت لا يشعر بها أحد، لم يفهمها إخوتها ولا والديها.

جاء للأم اتصال هاتفي بعد أسبوع من وفاة الجدة، كانت تتحدث مع زوجها، والفتاة الصغيرة التي علمتها الجدة أن تقرأ لغة الشفاة تنظر لكليهما، وهي تفهم ما يقولان، وقد كانا وكأنهما يتبارزان لا يتحدثان.

قالت الأم في غيظ: (جاءني اليوم اتصال من المركز الذي كانت أمك تذهب فيه بفتاتنا لتعلمها، وقد كانوا يسألون عن عدم مجئ الفتاة).

أمسك الأب بالجرائد وهو يتصفحها: (حسنًا، وما المهم في ذلك).

قالت الأم في غيظ: (لقد كثرت علي الأعباء، على أحدنا أن يذهب بها، وأنا أتمزق مع الصبية هنا، فكيف أجد وقتًا للفتاة، ولن نستطيع أن نتركها هكذا دون أن تتعلم، أنت تعلم أنها تحتاج المساعدة، إنها بكماء).

أجاب في برود: (ولما عليك تعليمها، ما الحياة التي تنتظر بكماء مثلها؟! يمكنها أن تساعدك في المنزل، وتساعد إخوتها، ففي النهاية لن يقترب منها أحد ليتزوجها حتى).

أشاحت الأم بقطعة القماش التي كانت تمسكها في يدها وتنظف بها المنضدة صارخة: (يا لك من غليظ القلب يا كاظم! تعلم جيدًا أن الفتاة تفهم ما نقول، يا إلهي لا أصدق ما يحدث).

وهرولت ناحية الفتاة؛ التي كانت عيناها مغرورقة بالدموع، فقد شعرت في هذه اللحظة باليتم بين والديها، يُتْم فقْدِ الجدة التي كانت الأب والأم وكل شئ في حياتها، مسحت الأم دموعها، وقالت

لها: (لا تبكي يا نورسين، سأذهب معك أنا حتى لو يوم واحد، بدلًا من ثلاثة أيام، كما كانت تفعل الجدة، سامحيني حبيبتي، فإخوتك يحتاجونني أيضًا).

تركتها الفتاة، وهرولت ناحية غرفة جدتها، التي كان والدها قد أغلقها، وأخذت تضرب على باب الغرفة، وهي لا تستطيع أن تصرخ، ربما تفتح لها الجدة كما اعتادت أن تفعل، ولكن هيهات يا صغيرة، فقد ذهبت الجدة إلى الأبد، ولمَّا يئست من أن تجد ردًّا تركته وذهبت إلى غرفتها، والتي أصبحت عالمها الآن.

جاء اليوم الموعود، يوم نورسين للذهاب لمركز التأهيل لتلقي التعليم المناسب لها، كانت الأم على عجالة، أخذتها ولأول مرة تذهب معها بالطبع، سأل الكل عن الجدة حتى أولياء أمور الأطفال الآخرين، فلم يعتادوا أم نورسين معها، بل لقد كانت المرة الأولى التي يرونها فيها، وعندما أخبرتهم بما حدث للجدة حزن الجميع، فقد كانوا يحبونها حبًّا لا يوصف، لقد كانت حنونًا حتى مع الغرباء، نظرت الأم حولها فوجدت العديد من الأمهات الأخريات مع أطفالهن ممن يحملن إعاقات مختلفة منهم الجسدية ومنهم العقيلة، اقترب طفل صغير يدعى (عليًّا) ممن لديه متلازمة داون (إعاقة ذهنية)، وهو يهرول ناحية نورسين، وقد نطق اسمها بطريقة متكسرة، وكأنه يخرج بجهد كبير، فابتسمت نورسين له واحتضنته، فنظرت الأم له في غرابة، وما انفكت تكمل نظرتها حتى شاهدت طفلًا آخر قادمًا من بعيد، يجري ناحية نورسين، قائلًا وهو يتلعثم: (أين الجدة التي تعطينا الحلوى مثل كل مرة؟).

طأطأت الطفلة رأسها في الأرض حزنًا، فضحك الطفل وهو لا يفهم نظرتها، وحاول أن يجذبها من شعرها كما اعتاد أن يفعل، معتقدًا أن هذا هو اللعب العادي للأطفال، وأخذ يتمضغه كأنه علكة ونورسين تضحك، فصرخت الأم وحاولت أن تبعده عن ابنتها خوفًا منه، فهي لا تعلم ما هذه الأفعال الغريبة، أو لم تعتاد عليها، فحملقت الطفلة في والدتها بغضب، وأشارت للطفل بأصبعها أن يكف عن فعلته، وأخرجت من جيبها لعبة صغيرة كانت قد جلبتها من المنزل لتسليها في الطريق، وأعطته إياها وهي ما زالت تشير ناحية شعرها شاهرة أصبعها بعلامة (لا)، فترك الطفل شعرها، وجذب اللعبة بسرعة، وأخذ يضعها في فمه بدلا من شعرها، والسعادة تغمر عينيه، فنظرت والدة علي لأم نورسين، والأسى في عينيها قائلة: (عجبًا، لم يكن ليؤذيها، إنه يبحث عن حلوى، وهو مريض لا يعي ما يفعل، انظري لفعلة طفلتك، بادلته نظرة الخوف والغيظ بلعبة أسكنته).

كانت أم الطفل الآخر، والذي يدعى يوسف، قادمة من بعيد، اختطفت طفلها، وهي تبادل والدة نورسين نظرات العجب والحزن والأسى لردة فعلها تجاه ابنها، وتعجب من فظاعتها مع ولدها، فجذبته من ذراعه ومضت به.

نظرت والدة نورسين حولها، وقد وجدت أنه ليس عليها فقط تحمُّلُ إعاقة ابنتها التي لا تعرف كيفية التصرف معها، بل وعليها أيضًا أن تتحمل أصدقاءها من ذوي الاحتياجات الخاصة، فهذا هو عالم الطفلة، وعليها أن تتأقلم معه جيدًا الآن.

* * *

الفصل الثاني

(الأحلام)

أعوام مضت، وأصبحت الطفلة الآن في السادسة عشر من عمرها، فتاة شابة جميلة في مقتبل العمر، كان شعرها كسواد ليلٍ حالكٍ لامعٍ كنجومه البراقة في السماء طويل كذيل مهرة عربية أصيلة، عيناها كانت كعيني الأيائل البنية الواسعة الجميلة، قوامها ممشوق، وجمالها الشاب يضج بالحياة، جالسة كعادتها على مكتبها في غرفتها ترسم، فقد كانت تعشق الرسم وخاصة المناظر الطبيعية الخلابة حين جاء والدهاعلى عجالة، وهو ينادي على أبنائه وزوجته: (اسمعوني جيدًا، اليوم سيأتي لزيارتنا رجل الأعمال الشهير (مخلوف العبد)، إنه رجل فاحش الثراء، أريد منكم أن تتهيئوا بملابس قيمة أمامه فهو سيجلب أولاده، ولدينا صفقة كبيرة سنصبح فيها من الأثرياء).

فخرج ولده الكبير (عاصم) من الحمام، وهو مازال ممسكًا بالفرشاة يغسل أسنانه، ويقول: (إننا أثرياء بالفعل يا والدي).

فبادله الوالد بنظرة غيظ: (وما المانع في أن نصبح أكثر ثراءًا).

فتركه ولده، ودخل إلى الحمام مرة أخرى، أما نورسين فلم تهتم، وأكملت رسمها، كان عاصم قد بلغ عامه الثالث والعشرين،

وأخوهم الأوسط (نادر) والذي كان في الواحد والعشرين من عمره اقترب من والده في خبث قائلًا:

(صفقة جديدة، يا ترى إن ساعدتك كم سأنال مقابلها يا والدي؟!).

ضحك الأب وهو يعلم أن ابنه يشبهه: (أرني مهارتك يا فتي، وستنال مكافأة مجزية).

لملمت الأم بعض الفضيات مع الخادمة لتنظيفها في المطبخ، وتركت زوجها الذي كان يجهز الأوراق لبرم الصفقة التي يحلم بها، وأخذت تجهز الوليمة، بعثت الخادمة لتأتي بنورسين وتساعدهم في العمل، فقامت الفتاة بكل ما طلب منها، ثم تركتهم ومضت إلى غرفتها، وأغلقت الباب كان على بابها مصباح صغير، فهي لن تسمع من يدق بابها، كان من يريد الدخول لغرفتها يضغط على زِرِّ المصباح من المخارج فيضئ لتفتح له، كان هذه المرة والدها، يا له من يوم! لم يعتد أبدًا الدخول لغرفتها، نظرت له في تعجب، فقال لها على عجاله: (ارتدي ملابس أنيقة يا فتاة، لا أريد هلاهيلك التي ترتديها كل مرة، أتسمعين؟).

وتركها وقد أغلق الباب خلفه.

تنهدت الفتاة، وفتحت خزانتها بعد أن انصاعت لأوامره دون مناقشة منها، وأخذت تتفحصها، ثم اختارت فستانًا أزرق اللون مزركشًا منفوشًا من الأسفل، وكأنه لأميرات ديزني، نظرت للفستان وهي تتحسس العقد ذا الماسة الزرقاء على رقبتها، يبدو مناسبًا جدًّا، ارتدتهم وخرجت لتناول الطعام مع الضيوف، وقد ارتدى إخوتها بزات سوداء تقليدية في هذه المناسبات، والأم وضعت حجابًا صغيرًا

على رأسها، وفستانًا أنيقًا هادئ النقشة، وجلسوا جميعًا حول مائدة الطعام التي كانت تحمل ما لذَّ وطاب من الطعام.

جلس الضيف في تفاخرٍ، ومعه زوجته وابنه (مهند) وابنته (فيروز)، التي كانت تبدو ملابسها خليعة جدًّا رغم أنها في نفس عمر نورسين، إلا أن الفرق بينهما يبدو واضحًا جليًّا، فالأخرى تضع أدوات تبرج بطريقة مقرفة، لا تتناسب مع سنها حتى، ناهيك عن ملابسها التي تفضح ملامح جسدها الممشوق بطريقة لافتة، أما نورسين فقد اكتفت بجمالها الطبيعي، ولم تضع شيئًا، نظر الأب لابنته التي كانت لا تضع أدوات تبرج في غيظ، وابتسم للفتاة الأخرى، والتي كان ابنه الأكبر عاصم يتغزل فيها، بالطبع كما أمره والده، فهو يطيع الأوامر فقط دون أن يستخدم عقله حتى، فنظر كاظم في خبث للضيف، وقال: (يبدو أننا لن نكون رفقاء عمل فقط يا سيد مخلوف).

وأخذا يتبادلان الضحكة سويًّا، وهما ينظران لولديهما، فهمس الرجل بصوت خافت في أذن كاظم: (يبدو أن ولدي أيضًا أسره جمال ابنتك الطبيعي، يا لها من فتاة هادئة! فمنذ جلسنا لم نستمع لصوتها).

ابتلع كاظم ريقه، وهو ينظر لابنته وقد شعر بالحرج منها، ولم يقوى على إخباره بحالتها، فتركه الضيف ونظر لنورسين وهو يبتسم ثم قال: (أخبريني يا فتاة، أعلم أنك في العام الأخير من الثانوية العامة، هل قررت أيَّ جامعة ستلتحقين؟).

فأشاحت الفتاة وجهها ناحية والدتها في خجل لتجيب عنها، فتلعثمت الأم قليلًا ثم قالت: (إنها تحب الرسم، اعتقد أنها تريد كلية الفنون الجميلة).

فضحك الرجل وما زال متجهًا بناظريه إلى الفتاة: (هيا يا صغيرة، لما الخجل؟! ألا تريدين أن تجيبي عمك العجوز؟).

فطاطأت رأسها في خجل، وأمسك كاظم بالرجل وهو يضحك، ويلقي نكات ليغير الموضوع، حتى لا يشعر الضيف أن هناك خللًا ما يريد أن يخبئه في ابنته، كان ابنه مهند يحاول استمالة نورسين له، والتي تجاهلته، بل دفعها إلحاحه لترك مائدة الطعام والجلوس كعادتها في الشرفة.

انتهى وقت الضيوف، وسلما على أهل المنزل إلا نورسين التي فضَّلت البقاء في الشرفة على الجلوس معهم، فدخل الأب إلى الشرفة وهو يصرخ فيها، فتوجهت بناظريها تجاهه لتقرأ ما يقول على شفاهه الغاضبة التي تحمل قسوة أكثر مما تبدي عيناه الجاحظتان تجاهها: (ألن تكُفِّي عن إحراجي أيتها الفتاة، لما عليك ترك مائدة الطعام بهذه الطريقة المهينة دون استئذان حتى؟!).

بادلته نظرة حزينة، وهي تشير بيديها أنها شعرت بالحرج من أسئلة الضيف، وحاولت أن تخفف عن والدها الحرج من كونها صاحبة إعاقة لا يد لها فيها، وهي اختيار الله الذي ما زال والدها يرفضه، قالت كلماتها بلغة الإشارة، ثم تركته وهرولت ناحية غرفتها تبكي حزنًا وأسى على حالها.

ضجَّ البيت بالصراعات بين الأب والأم، والتي حاولت أن تلين قلبه ناحية الفتاة، حتى يقلل من حِدَّتِه معها في التعامل، لم تكن نورسين تسمع حديثهم، لكن ذبذبات الصوت العالي تشعر بها جيدًا، وخاصة حين يكون هناك مشاحنات أسرية، لم تجف دموعها حتى دخل نادر

أخوها الأوسط دون أن يطرق الباب ليُنَوِّرَ لها المصباح حتى تعلم بقدوم أحدهم وتستعد له، لكنه باغتها بالدخول فجأة، وملامحه لا تقل حدة عن والده.

أمسك نادر بالباب وفتحه، ودخل عليها مباشرة، لم يرق قلبه لدموعها التي بللت وسادتها، فنظر لها في غيظ قائلًا: (استمعي لي جيدًا أيتها الفتاة، إن صدر منك أيُّ أمر مشين آخر سيكون الرد مني أنا، لن أسمح لك أن تخربي علَيَّ هذه الصفقة، ومن ثَمَّ إن الفتاة فيروز هذه لي، ولن يحصل عليها عاصم).

حاولت أن تمسح دموعها، وأشارت إليه: (إنه أخوك، كيف تكون قاسيًا هكذا، أنا لا أهتم لقسوتك لي، ولكن عاصم يبدو أنه منجذب إليها، كيف تكون بكل هذا السوء يا نادر؟!).

أجابها بكل فتور: (أنا ابن والدي يا فتاة، مثله تمامًا، أما عاصم فهو مجرد أحمق، لا يقوى على قول لا حتى).

أشاحت بوجهها عنه، وهي تشير له بحركة غاضبة من يديها: (قاسٍ مثله تمامًا).

فأدار وجهه في مواجهة وجهها لترى ما يقوله، وهو يضحك ضحكته الخبيثة: (جيد، إن أمي أخفت عنك هدية جدتي لك حين أتممتي عامك السادس عشر، فقد كانت وصيتها هي إعطاؤك كتابًا طفوليًّا أحمق، به كلمات لم يفهم حتى أحد منّا ما الذي تعنيه).

قامت نورسين من مكانها وهي تحاول استمالته مترجية له أن يخبرها عن هدية الجدة، لكنه ضحك وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه ليتركها في ذهول وتساؤل، لكنه لم يدم طويلًا فقد خرجت في أثره

سريعة الخطى ناحية غرفة أمها وأبيها، طرقت الباب كثيرًا دون أن تنتظر الجواب، ففتحت لها الأم وهي متعجبة من إصرارها على الدخول، قبل أن تنطق والدتها قاطعتها نورسين، وهي تشير بيدها: (أين كتاب جدتي؟).

نظرت الأم إلى والدها في تعجب، وهي تتساءل: كيف علمت الفتاة بهذا الأمر؟ فأخذت نورسين تعيد السؤال مرارًا وتكرارًا حتى قام والدها من مكانه، وفتح خزانة الملابس، وأخرج كتابًا صغيرًا قديمًا، وهو يشيح بوجهه إلى زوجته قائلًا: (كتاب صغير لا فائدة منه، لا أعلم لم عليك أن تخفيه عنها، وتجلبي لنا مزيدًا من المشاكل، كفانا ما نحن فيه، أعطيه لها فهو لا يجدي نفعًا).

ألقى به في وجه نورسين، والتي التقته بسرعة وهمت بالخروج، فأمسك بذراعها وهو يسألها: (من أخبرك بالكتاب؟).

فأشارت إلى نادر، والذي وقف على باب الغرفة وهو يبتسم قائلًا: (حسنًا والدي هذا الشبل من ذاك الأسد، أنا أفعل ما تفعله، ألم تقل أمي: إن الكتاب مجنون، وسيجعل الفتاة مثل جدتها؟).

فهجم الوالد على ابنه، وصفعه على وجهه: (اخرس أيها الأحمق، كيف لك أن تنعت جدتك بالجنون؟!).

وضع نادر يده على وجهه مكان ضربة والده، وهو يقول في غيظ: (أخبرتك من قبل: هذا الشبل من ذاك الأسد، كنتَ في السابق على استعداد لتبيع جدتي مقابل النقود، وها أنا أسير على خطاك).

وترك غرفة والده، واتجه إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بشدة، جلس كاظم على سريره، وقد طأطأ رأسه في انحناءةِ كسرةٍ وذلٍّ،

وهو يتذكر إهماله لأمه، وبحثه المضني عن المال، قال -وقد غادرت نورسين غرفتهم أيضًا- موجها حديثه لزوجته: (يبدو أن كلام الولد حقيقة، سأتجرع من نفس الكأس التي سقيت بها أمي بإهمالي لها، وها هو ولدي يقولها لي صراحة).

رَبَّتَتْ زوجته على كتفه: (كل ما أردناه منك يا كاظم هو أن تكون رءوفًا بنا، ليس أكثر من الرأفة، وها أنا أيضًا أجني معك حصاد ما زرعناه، ولدي أفشى سري وأخبر أخته عن الكتاب).

صرخ كاظم فيها: (أمي ليست مجنونة يا امرأة، وما الداعي في أن تأخذ ابنتنا هذا الكتاب الأحمق، لقد قرأناه ولم نفهم منه شيئًا، لم عليك إخفاؤه منها، ربما تريدين أن تنعتيها بتلك الصفة التي نعتها بها نادر).

- (قولتها بنفسك يا كاظم: لم نفهم منه شيئًا، وأنت تعلم جيدًا أن أمك كانت تخبرنا بأمور غريبة جنونية).

- (نعم، ولكنها توقفت؛ كانت مرحلة في حياتها وانتهت، ربما كانت مريضة، أو بها علةٌ ما، تعلمين أنني عرضتها على أطباء كثر).

قاطعت حديثه: (توقفت عن إخبارنا بالمزيد من قصصها الخرافية، ولكنها لم تترك هذا الكتاب من يدها يومًا).

أشاحت بوجهها عنه، وقد تملكها الخوف على ابنتها، ولكن الأب كعادته لم يهتم لما حدث، وأخبرها أن تجهز حقائب السفر، فسوف يذهبون في رحلة مصيف مع عائلة (مخلوف) إلى الساحل الشمالي بعد غدٍ، كما سمعت حين تجاذبا أطراف الحديث على مائدة الطعام، فتركته وارتمت على السرير وقد أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى قائلة: (غدًا أجهزها، سأرتاح قليلًا الآن).

دخلت نورسين مهرولة إلى غرفتها وهي تحتضن الكتاب، إنه هدية جدتها حبيبتها التي كانت لها عالمًا خاصًّا رغم حب والدتها ومساعدتها لها إلا أن حب جدتها ومكانتها في قلبها كان له مذاق آخر.

جلست على كرسي في غرفتها، وأمسكت الكتاب وفتحت أول صفحة به كان مكتوب بها كلمات قليلة: (حديقة الأزهار.. أوحشتني رؤيتك بها).

أغلقت نورسين الكتاب، وهامت بعقلها تتذكر أي شيء عن حديقة الأزهار هذه، لكن لا شيء كاد عقلها يطير، وهي تحاول أن تفهم ما الذي تعنيه جدتها بتلك الكلمات، لكن لا شيء، ففتحت الصفحة التالية ووجدت بها: (عليك تذكر الأولى حتى يتثنى لك فهم ما بعدها).

تعجبت من هذا الكتاب، كلمات مبهمة لا تفهمها حتى، فتوجهت ناحية خزانتها بعد أن تركت الكتاب على المنضدة، وأخرجت العقد الذي أهدته لها جدتها، وأخذت تتفحصه وهي تبتسم، واحتضنته بقوة ثم ارتدته حول عنقها، وأمسكت بالكتاب وقد اتكأت على سريرها، وقد غلبها النعاس.

حلم جميل غاصت فيه بكل تفاصيله، مكان رائع مليء بالأزهار من كل الألوان والأشكال، وكأنها دخلت إلى جنةٍ ما، لا تعرف كيف تصفها؟ أخذت تتمشى به رويدًا رويدًا، وهي تلمس كل زهرة تجدها أمامها، وكأن الأزهار تضحك لها، يا له من مكان جميل، حتى وصلت إلى جانب حوض ماء تتلألأ مياهه كأنها حبات لؤلؤ جميلة نادرة الشكل، ووجدت خلف الحوض سيدة جالسة ممسكة ببعض الأزهار، وقد غطت الأزهار وجهها ثم أشاحتها عنها قائلة: (كم انتظرتك كثيرًا، طال غيابك منذ آخر مرة).

ما إن رأتها نورسين حتى هرولت ناحيتها واحتضنتها بقوة وهي تقول: (جدتي حبيبتي، افتقدتك كثيرًا).

ثم تركت حضنها وهي تنظر للجدة وإلى ما حولها: (إنه حلم أليس كذلك؟ نعم، أعلم أنه حلم، ولكني وكأنني شاهدته من قبل).

قامت الجدة من مكانها، وأعطتها بعض الأزهار، والتي كانت أجمل مما رأتها في كل الحديقة من قبل، وقالت لها: (إن كنت ترينه حلمًا، فليكن إذن).

وقبل أن تكمل حديثها أفاقت على يد والدتها، وهي تهزها لتوقظها من نومها: (كفى نومًا حبيبتي، أوشك الصباح على الذهاب، يكفيك كل هذا النوم من البارحة، هيا أفيقي لتجهزي حقيبتك، لدينا سفر هام).

قامت نورسين من نومها وهي تتلفت حولها، وقد أيقنت أن ما رأته كان حلمًا، فشعرت بالحزن وقامت لتجهز حقيبتها، ألقت الحقيبة على سريرها بلا مبالاة، وهي تلقي بالملابس بداخلها غير مكترثة لانتقائها حتى، ثم ألقت بفستانها الأحمر الصغير دون قصد على الكتاب فانزلق الكتاب ووقع من فوق السرير إلى الأرض فانفتحت أوراقه على الصفحة الثالثة، وقد كانت بها رسمة لوردة مما أعطتها جدتها، بل تبدو أنها هي، ألقت نورسين بالملابس من يدها وهرولت ناحية الكتاب، وأمسكته وهي تتفحص الوردة جيدًا، فأمسكت بالكتاب وهرولت ناحية والدتها: (أمي، انظري ماذا وجدت، كما شاهدته في حلمي، لقد أعطتني جدتي هذه الوردة المرسومة هنا، كيف يحدث هذا؟!).

نظرت لها والدتها في عجب، وهي تلقي بناظريها ناحية أبيها كاظم، ثم قالت: (ألم أخبرك ألا نعطيها الكتاب، ها هي ابنتك تخطو خطي أمك، أنا لا أصدق ما يحدث من أفعالك يا كاظم، الصفحة فارغة يا حبيبتي، بها بعض الرسومات التي لا معنى لها، ويكفيك هذا، اتركي هذا الكتاب الأحمق من يديك، لن يجدي لك نفعًا).

ثم تركتها وأخذت تحضر الطعام بالمطبخ، وكان كاظم ممسكًا بالجريدة يتفحصها، وقد ألقى نظرة عابرة على ما حدث بعويناته، ثم أدار وجهه ناحية الجريدة مرة أخرى.

دخلت نورسين إلى حجرتها مرة أخرى، وهي تتعجب لما يحدث، إنها ترى الزهرة جيدًا، أخذت تقلب بالكتاب فوجدت كلمات لم تفهمها كما حدث بالسابق، ولكن يبدو أن أول صفحة والتي كان بها حديقة الأزهار، كانت تعني اللقاء بينها وبين جدتها، تذكرت أنها شاهدت المكان من قبل، ولكن لم تتذكر أين أو متى؟ ولكنها ما زالت تذكر حديث جدتها حين أخبرتها، وهي طفلة أنه (يمكنهما أن يلتقيا هنا دائمًا) هل تذكرها لتلك الكلمات له صلة برؤية جدتها في ذلك الحلم الغريب أم أنها فقط تهزي؟!

جاء موعد الرحلة دون أن تشاهد أي حلم آخر، وكأنه قد جفتها الأحلام وتركت بابها، تعجبت لما حدث في اليومين السابقين، ولكنها انهمكت في الرحلة، والتي لم تستغرق كثيرًا من القاهرة إلى الإسكندرية بالسيارة الفارهة التابعة لشركة والدها، والتي كان يقوم بقيادتها الطريق كله سائق محترف يعمل لديهم.

يحملون معهم كل وسائل الترفيه التي تجعل الرحلة تنقضي في وقت أقل من المفترض لها، إلا هي كانت تحمل الكتاب وتسرح

بخيالها بعيدًا عن دنياهم، تتذكر جدتها وعالمها الخاص الجديد الذي تمنت كثيرًا أن تعود إليه، لكن يبدو أنه كان مجرد حلم حتى إنها أخبرت نفسها لربما شاهدت الزهرة المرسومة قبل نومها ففعل العقل الباطن فعلته معها وجعلها ترى هذا الحلم العجيب!

نظرت من نافذة السيارة كان البحر مطلًّا برائحته العطرة من بعيد، أغمضت عينيها واستسلمت لتلك الرائحة المحببة لديها حتى أعلن السائق عن الوصول، فخرج الجميع من السيارة، والتي كانت واقفة أمام فندق فخم يهرول عماله لحمل حقائبهم، وتلك الابتسامة المصطنعة التي يجبرهم رب عملهم عليها مرسومة على وجههم وهم يستقبلون الحضور.

كانت نورسين تحمل حقائبها حين اقترب منها أحد العاملين ليحملها عنها كما فعل مع البقية، وهي تعطيه الحقائب التفتت إلى وجوه الناس التي كانت كلها تنظر بغرابة للخلف وبالتحديد أمام مدخل الباب فتوجهت بناظريها إليه، كان صوت صريخ عال هو ما لفت أنظار الجميع إليه، فما أن نظرت مثلهم إلى مكان الصوت حتى وجدت أنه صديقها (يوسف) المصاب بالتوحد ذو الأربعة عشر عامًا، كان يصرخ في الردهة، فالمكان جديد عليه، ولم يعتد أصحاب ذلك المرض النفسي على الأماكن الجديدة، فهي شبح مخيف بالنسبة لهم، ولكن يبدو أن والدته أرادت أن تخفف عن نفسها وطأة تحمل أعباء لا طاقة لأحد بها، فمريض التوحد تعيش أمه وكأنها مقاتلة في حرب شرسة مع مرض لا علاج له.

كان (يوسف) يصرخ على حقيبته حين حاول العامل أن يأخذها كغيرها من الحقائب، فتوقف العامل فجأة حين وجده يصرخ هكذا،

وتوجه الجميع ينظرون إلى المسكين، وكأنه قد أتى من عالم آخر، هم على علم أنه مريض، ألم يكفِ الأم تحمل طفل مراهق مريض بمرض لا علاج له حتى تأتي نظرات الناس لتأكلها وتدمي قلبها الذي ما زال ينزف؟!

حاولت نورسين أن تجري ناحيته لكن والدها أوقفها ممسكًا بذراعها، وهو ينظر باشمئزاز ليوسف، وهي تقرأ شفاهه حين قال: (ألا يكبر هؤلاء أبدًا؟!) ثم كيف لنا أن نقضي أجازة ممتعة هادئة وسط كل هذا الضجيج؟ على مدير الفندق أن يجد حلًّا وإلا غادرنا وهو الخاسر ساعتها).

كان مدير الفندق قد أسرع من بعيد ناحية يوسف وأمه، وهو يتلفت إلى النزلاء وهم يشعرون بالضيق فاقترب من أم يوسف وهمس في أذنها وهو يتلفت حوله: (نأسف لك يا سيدتي، استمحيك عذرًا ليس مرحبًا بكم هنا، فأنا أرى الانزعاج في وجوه زبائننا و...).

قاطعت حديثه وهي تخفي الدموع في عينيها، وأمسكت بيد ولدها وهو تواري الحزن بداخلها، وأخذت تهدئه حتى يخرج معها: (تعال يا ولدي، هيا بنا نخرج من هذا المكان، إنه لا يليق بنا سنبحث عن غيره).

لكن يوسف ما زال يصرخ وأبى أن يخرج من الفندق، فتركت نورسين يد والدها والتي كانت محكمة القبضة عليها؛ لأنه يعلم جيدًا أنها ستقف معهم مواقف يراها من وجهة نظره تسبب له الإحراج، لكنها لم تكترث وهرولت ناحية يوسف تاركة عائلتها واحتضنت أم يوسف وهي تمسح الدموع من عينيها، فقبلتها الأم على رأسها ومسحت عليه،

وقد تبدَّلت دموعها إلى ابتسامة أم حانية: (بارك الله فيك يا نورسين، ليتكِ كنت ابنتي، هيا يا فتاة اذهبي إلى عائلتك، فوالدك قد تطاير الشرر من عيونه).

قبضت الفتاة على يد الأم وقبلتها، وربَّتت على كتف يوسف، وهي تنظر لعينيه، وهو لا يبادلها النظرة ربما نظرة خاطفة منه، ثم أشاح بوجهه وهو يضحك ويقول: (نورسين الجميلة.. نورسين الجميلة).

هدأ قليلًا عندما رآها، ومضى في طريقه وأمه ممسكة به من يده، وكأنه قد رأى مهدئ أعصاب من نوع خاص، نعم هو يعرفها جيدًا، إنها صديقته المفضلة التي تعطيه الحلوى والألعاب كلما ذهبت إلى مركز التعليم الخاص بهم، نعم نورسين الجميلة من الداخل والخارج.

وقفت الفتاة وهي تنظر إليهم حتى اختفيا عن الأنظار، ثم عادت إلى والدها ووقفت بجواره وهي تشير إليه بيدها قائلة: (أنت أبي مهما صار، وأنا لن أكون عاقَّة لك، فأنا أخاف الله وأعلم أنه يراقبني، ولكن أستميحك عذرًا أن تغفر لي حبي الشديد لأصدقائي المرضى فهم نصفي الآخر).

قبلت يد والدها وأمسكت مفتاح غرفتها من العامل وأسرعت ناحية المصعد لتضغط على رقم الدور الذي فيه الغرفة، وما أن وصلت حتى ارتمت في أحضان سريرها كعادتها، منتظرة تلك الأحلام التي غادرتها وقد كانت فيها ملاذها الآمن، الذي تمنت أن تعيش فيه إلى الأبد.

دخلت والدتها عليها الغرفة ووجدتها ما زالت ملقاة على السرير بالملابس التي جاءوا بها، فطلبت منها تغييرها؛ لأنهم سيقابلون السيد

مخلوف صاحب الصفقة التي ينتظرها الجميع، وعليها أن تتحضر، وأن تكون مطيعة هذه المرة، ابتسمت نورسين وقامت لتجهز نفسها كما طلبت منها والدتها، وبالفعل أنجزت ما طلب منها، ونزلت مع والدتها إلى الشاطئ الذي كان فيه والدها وأخويها، وذلك الضيف الذي تراه ثقيلًا، وولديه مهند وفيروز، تلك الفتاة التي لا يرى والدها في ارتدائها لملابس البحر الفاضحة أي عيب، بل إنه نظر لنورسين قائلًا: (لم لا ترتدي ملابس البحر؟ ألن تذهبي معهم للعب مع الأمواج لقد تحضرت لها فتاتي الجميلة).

بادلت والدها بنظرة حاولت فيها أن تداري غيظها، والذي أجاب عنها: (إنها لا تحب البحر).

فقال الرجل، ونظرات التعجب تملؤه: (عجبًا يا كاظم، تجيب كل مرة ولا تترك ابنتك تتحدث أبدًا؟!).

فقاطعته الفتاة، وقد أمسكت بورقة وقلم، وكتبت بها بالخط العريض (أنا بكماء).

ثم ألقت بالورقة على المنضدة في غيظ، وأشاحت بوجهها إلى البحر، اغتاظ والدها وأمسك بالورقة وقام بثنيها، وألقى بها في سلة المهملات، دون أن يجيب بعد أن بادله مخلوف بنظرة أسف، وقام ابنه سريعًا من مكانه وهو ينادي على نادر وعاصم وأخته ليهرولا سويًّا بداخل مياهه التي لا تقاوم تاركًا نورسين، فقد علم سرها وهي الآن غير مرغوب بها.

قبل أن تمضي فيروز معهم ادَّعت أنها تلتقط شيئًا من الأرض وكانت واقفة بجوار نورسين، فنظرت لها وقالت بلغة الشفاة دون أن

تخرج صوتًا: (كنت أعلم أنك بكماء، ولكنني لم أخبر والدي، ولكني لم أعلم أنك رجعية متخلفة ترتدين ملابس محتشمة بالية عفى عليها الزمن).

وهمَّت بالذهاب فأمسكت نورسين بيدها وقد كتبت كلمات في ورقة، وألقت بها بداخل كف يدها الصغيرة، ففتحت الفتاة الورقة ونظرت إليها فوجدتها قد كتبت لها: (ما زلنا صغار، ولا أعلم أن الاحتشام سيبلى أبدًا أيتها المتحررة من العقل).

نظرت لها فيروز في غيظ وألقت بالورقة في سلة المهملات كما فعل والدها، وهي تبتسم وتقول لها بشفاها دون أن تنطق: (حتى والدك يشعر بالحرج منك، مكان ورقتك بجوار أختها في سلة القمامة).

وتركتها وهي تصرخ نشوة وفرحًا مع الشباب، وهم يهرولون ناحية مياه البحر، والأمواج ترتطم بهم تزيد شعورهم بالسعادة والنشوة أكثر، فاندفعوا يلعبون في مياهه، وكأنهم باستطاعتهم أن يمسكوا أمواجه ويلقونها على بعضهم البعض، ونورسين تنظر بعيدًا عنهم غير مبالية بأمورهم الصبيانية هذه.

انقضى اليوم وقد كانت تشعر بالتعب والنعاس الشديد، مضى الكل في طريقه إلى غرفته وهي خلفهم تتخبط من التعب، وعقلها مشوش ما زال يفكر بتلك الأمور التي رأتها في أحلامها.

ما أن وصلت إلى غرفتها حتى ارتمت في أحضان سريرها، وغطت في نوم عميق هذه المرة، وأتاها الحلم مجددًا (حديقة الأزهار) أخذت تبعد وريقات الأشجار عنها وهي تبحث عن جدتها حتى وجدت حوض الماء، فهرولت ناحيته وهي تناديها، كانت الجدة

جالسة بداخل إحدي الأزهار، والتي انفتحت فخرجت منها، حين رأتها اندفعت نحوها تحتضنها فبادلتها نورسين الأحضان وهي تقول: (جدتي، انتظرتك يومين كاملين، لما لم أشاهدك؟! هل هذا الحلم لن يستمر؟ هل حقًّا مجرد حلم؟ انظري أنا أتحدث في الحلم كيف يحدث هذا؟!).

ابتسمت الجدة وأمسكتها من يدها وأجلستها بجوارها على إحدى الأزهار التي ما أن اقتربت منها الجدة حتى مالت ناحيتها لتجعل من نفسها مقعدًا لهما نظرت الجدة للفتاة، وقالت: (هوني على نفسك يا حبيبتي، كل شيء ستعلمينه في أوانه، ثم إنك هنا في أرض الأحلام يمكنك أن تتمني أي أمنية تريدينها بداخلك، كنت تريدين أن تنطقي بشدة، فها أنت الآن تنطقين).

ضحكت الفتاة: (صوتي، هل هذا صوت حقًّا؟ يا إلهي كنت أريد أن اسمعه).

تركت يد جدتها وتلك الزهرة التي تجلس عليها، وأخذت تدور وهي تضحك في المكان قائلة: (كنت أريد أن أصرخ منذ زمن الآن يمكنني أن أسمع صوتي وأنا أصرخ أيضًا)، وأخذت تصرخ صرخات سعادة لم تشعر بها من قبل.

كانت الجدة تنظر لها وهي تدور كالفراشة في المكان تصنع احتفالًا بصوتها، وكأنها قد حصلت على كنز كبير، نعم هناك نعم كثيرة أعطانا الله إياها لن نعرفها إلا إذا كنا فاقديها ففاقد الشيء لا يعطيه إنما يشتاق إليه.

كانت تدور وتدور حول نفسها من زهرة إلى أخرى إلى أن وقفت أمام باب خشبي وتصلبت مكانها وهي تنظر إليه، فهرولت

الجدة ناحيتها ووقفت بجوارها تشدها من يدها وتثنيها عن النظر إليه حتى، ولكن نورسين أخذت تنظر بغرابة له، ثم قالت: (أتعلمين يا جدتي، أتذكر الآن الحلم الذي شاهدتك فيه، وأتذكر جيدًا هذا الباب، وأنك حذرتني من الدخول إليه، كنت صغيرة ولكني لا أعلم لما علَيّ ألا أدخله؟).

ابتلعت الجدة ريقها وأمسكت بيد الفتاة: (ابتعدي يا طفلتي، إنه شر، لا تقعي في خطئي أبدًا، فقد كنت حمقاءأ ولم أستمع لحديث أمي حين نبهتني).

ابتسمت نورسين لها، وأومأت برأسها موافقة، وهي تمشي بها بعيدًا عنه، لكنها أدارت وجهها ناحيته في فضول دون أن تراها الجدة وهي تقول في نفسها: (تُرى ما السر وراء هذا الباب؟!).

أفاقت من نومها وكانت السعادة تغمرها فقد رأت جدتها وتلك الحديقة التي كانت تتمنى أن تراها مجددًا، يا له من حلم جميل بالنسبة لها، ليته يدوم طويلًا، هكذا كانت تخبر نفسها مرارًا وتكرارًا طيلة اليوم الذي كان عاديًا كغيره بالمصيف، تجلس بعيدًا وتنتظر أخويها والفتاة المدللة حين يفرغون من اللعب في المياه، ولكن هذه المرة يبدو أن نادرًا قد حصل على مبتغاه، فقد تركت الفتاة عاصمًا وكانت تقضي أكثر الوقت مع نادر، والذي كان ماهرًا في استقطاب الفتيات، فلسانه المعسول الممزوج بالنفاق يميل بالكثيرين منهن.

كانت أيام المصيف كلَّها تتصفح الكتاب وبعض كلماته التي لا تفهم أغلبها، فقد فهمت فقط بعض الكلمات التي رأتها في منامها، أما ما تبقى من الأيام كانت تنتظر حتى تنام لترى جدتها وتتسامر معها

في حديقة الأزهار التي أصبحت مكانها المفضل الآن، وكأن الدنيا لا تليق بها، فهي مأساتها هي، ومن على شاكلتها ممن ابتلاهم الله بإعاقات لا ذنب لهم فيها.

نعم، لقد أصبح مكانها المفضل هو الأحلام، فالواقع مرير يأبي أن يجعلها تحبه أو تشتاقه لكن الأحلام هي الجدة، هي الأحضان الحانية التي افتقدتها فعوضها الخيال عن ذلك الواقع المرير الذي تعيشه.

* * *

الفصل الثالث

(خلف الباب المغلق)

مرت سبع ليال كاملة في المصيف، والأيام تلوك بعضها لا اختلاف فيها متشابهة حد السخافة بالنسبة لها، ناهيك عن أنها مجبرة على احتمال تلك الفتاة التي تعايرها في كل وقت كلما رأتها، لقد كانت فيروز تشكل عائقًا فوق عائقها الذي عليها تحمله، فأصبحت نورسين تهرب كلما وجدتها حتى لا ترى منها قبح الأفعال التي تقصد بها إيزاءها نفسيًّا قبل أي شيء.

وفي أحد الأيام بالمصيف وبعد انتهاء الأسبوع الأول، والتي كانت تتجول أغلب وقته على شاطئ البحر حول الفندق، وجدت مكانًا منعزلًا لا يوجد به أحد، كم كانت سعادتها حين أغمضت عينيها وفردت ذراعيها في الهواء كأنها فراشة في مهب الريح تستنشق عبيره الأخَّاذ، وترتوي من نسماته العليلة ما يشفي صدرها، وكأنها بتلك النسمات العطرة قد بُعثت من جديد. إلى أن بدأت في خلع ملابسها استعدادا لأن تلقي بنفسها في أحضانه الباردة، وقد كانت ترتدي أسفل ملابسها مايوهًا عاديًّا ملتصقًا بالجسد بعض الشئ وقصيرًا فوق ركبتها، تلفتت يمينًا ويسارًا وهي تخلع ملابسها فهي لا تريد أن يراها أحد، وقد كشفت عن ساقيها هكذا، فحياؤها من الله قبل أي شيء كان هو الفيصل هنا.

ما أن بدأت في خلع ملابسها حتى وجدت أحدهما يلوح لها، أمعنت النظر فوجدت شابًّا في مثل عمرها تقريبًا يلوح بيده أن انتظري أنا هنا، ارتدت تنورتها بسرعة وقد شعرت بالإحباط حين رأته، ولكنه كان يتحدث إليها بتلقائية لا يعرف أنها لا تستطيع الرد عليه، فما أن وجدته يحدثها حتى تنفست بغيظ وحاولت الابتعاد، لكن وقبل أن تبتعد وجدت شيئًا جعلها تقف في مكانها ولا تتحرك، الفتي كان يخرج من الماء زاحفًا، نظرت له في غرابة، فبادلها نظرتها بابتسامة وهو يخرج قدميه من الماء واحدة تلو الأخرى بيديه يجذبها فهي لا تقوى على الحركة، ثم أصبح جالسًا على الشط وهو يتحدث وكأن لا شيء به: (حسنًا أيتها الفتاة، لا تخافي مني فأنا كما ترين لن أوذيك أبدًا، وجدت هذا المكان قبلك بالمناسبة، وحقيقة لن اتركه لك، يكفي صمته وابتعاده عن ضجيج العالم).

قالها وهو ينظر ناحية الغروب، وكأنه يستمد طاقته من لون السماء الأورجواني في تلك اللحظة الخلابة، ابتسمت له وأشارت بيدها متحدثة بلغة الإشارة أنها بكماء.

ففهم وتأسف لها ثم اقترب منها زاحفًا: (بالمناسبة أنا أنس.. وأنت؟)

طأطأت رأسها في خجل وبأصبعها كتبت اسمها على الرمال (نورسين). أجابها: (اسم رائع، إنه يعني ضوء القمر.. وأرى أنك تقرئين لغة الشفاه).

أومأت برأسها موافقة فأكمل حديثه: (حسنًا يبدو أننا في مركب واحدة، فأنا مصاب بمرض يدعى الشلل الدماغي بعض الخلايا لا تعمل جيدًا، وهي لا تساعد أعصابي على الحركة هذا كل ما في الأمر).

جلست بجواره وهي تكتب على الأرض محاورة له: (يبدو أنك متصالح مع نفسك ولا يحزنك ما أنت فيه).

- (ولما الحزن؟! أنا أعيش حياة جميلة، أتعلم وأسبح كما رأيتي، وعندما أنتهي من الثانوية العامة سأدخل كلية الطب وأصبح طبيبًا كبيرًا، قد تسمعين اسمي يلمع في سماء الطب يومًا).

فاتبسمت من قوله، وكتبت له: (هل أهلك يراعون ما أنت فيه ويساعدونك؟).

- (جدًّا يا عزيزتي أمي لا تتركني أبدًا، وبيني وبينك لقد هربت منها حتى آتي إلى هنا، إنها تدعمني بقوة).

أجابته والحزن في عينيها: (ليت أهلي مثلها).

ثم قامت من مجلسها، وبدأت تنفض الرمال عن تنورتها متأهبة للذهاب، وحين وجدها توشك على الرحيل نظر لها وهو يحجب ما تبقي من ضوء الغروب الخافت الذي يدخل إلى عينيه ويمنعه عن النظر إلى الأعلى لرؤيتها قائلًا: (اصنعي حياتك بنفسك نورسين، لا تنتظريها من أحد.. سعدت بلقائك).

ردت له التحية وغادرت المكان عائدة إلى الفندق من جديد، وهذا اليوم مضى كغيره، انتظرت حتى تنام لترى جدتها وتلك الحديقة الرائعة التي لا يفارق جمالها خيالها أبدًا، وكل يوم يزيد فضولها عن ذي قبل في أن ترى ما السر وراء هذا الباب المغلق؟!!!

في اليوم التالي جلست بجوار والدها وعائلتها وعائلة مخلوف يتناولان الغداء في الهواء الطلق بجوار البحر.. كان أنس مارًّا بكرسيه المتحرك، فلما لمحها جر عجلاته بيديه وأتى إليهم ليلقي التحية،

ابتسمت نورسين عندما رأته، أما والدها فنظر لها بغيظ، ففهمت نظرته وحاولت تلاشي النظر إلى أنس حتى، والذي لم يهتم وقدم إليهم بكل ثقة قائلًا: (مرحبًا بالسادة، معكم أنس أنا جاركم هنا في الفندق).

أجاب كاظم بغيظ: (مرحبًا يا فتى أشكرك).

نظر مخلوف إلى أنس ثم أدار وجهه إلى كاظم قائلًا: (هل هذا صديق ابنتك يا كاظم؟).

شعر كاظم بالخجل من سؤاله؛ لأنه أحس فيه باللؤم أن ابنته لديها مشكلة فتوجه بناظريه إلى ابنته في غيظ ثم أجابه: (لا، لا نعرفه).

ابتسم أنس وأمسك بياقته وكأنه يعدلها في فخر وتعال، وقال وعيناه صوب نورسين: (لا عجب من حزنك الدائم يا فتاة، لقد فهمت الآن خجلك).

فتركهم وجرَّ كرسيه بعيدًا عنهم.. فهرولت نورسين تجري إلى داخل الفندق، ثم إلى غرفتها وأغلقت الباب وهي تبكي مما يفعله أهلها معها، حاولت والدتها أن تتحدث معها وهي تشفق عليها من والدها لكن دون جدوي، لم تفتح لها الباب حتى، وأصرت على البكاء حتى نامت وهي على وضعها هذا، وبالطبع كان هناك عالم الأحلام، عالمها الخيالي الحالم، حديقتها، وجدَّتها التي لم تغير من حالها حتى جلست معها جدتها في الحديقة كعادتها ووجدت عينيها دامعة، فسألتها عن السبب وعرفت منها ما حدث وعندما علمت تنهدت واحتضنتها، وقالت: (أتعلمين يا نورسين، كل ما نحن فيه بسبب أنني لم أستمع لحديث والدتي، لقد جعلت من كاظم وحشًا لا يشعر.. حتى الشفقة غادرته).

تركت نورسين حضن الجدة وأمسكت بيديها في حنان: (أخبريني يا جدتي ما هذا السر؟ أريد أن أعلم).

– (ربما سيأتي اليوم الذي أخبرك فيه ولكن ليس الآن).

شعرت نورسين بالغيظ والحزن، وكانت مشاعرها متخبطة: (ولكن، يا جدتي أنت لم تخبريني شيئًا غير الابتعاد عن هذا الباب، إن كان هذا الباب هو ما جعل والدي وحشًا كاسرًا فربما يمكننا إصلاح ما أفسدتيه!).

– (لا يمكن إصلاحه، انتهى كل شيء، أخبرتك من قبل أنه يحمل بداخله الرحمة والعذاب.. الخير والشر.. لا طاقة لك به يا حبيبتي).

– (أنا سأجن، أراك كل يوم في منامي وكأنه حقيقة، أشعر أن كل ما حولي في هذه الحديقة الخيالية هو حقيقي، وليس خيالًا علميًّا، بالخارج كالسجن يصيبني بالحزن بما يكفي حتى أتى إلى عالم آخر به ألغاز تصيبني بالربكة فوق حزني.. سأنصرف من هنا لقد سئمت كل شيء).

حاولت جدتها أن تناديها: (لا، نورسين عودي إبقي معي..).

لكن دون جدوى أخذت تجري وتتخبط بفروع الأشجار المتدنية إلى أسفل، والتي كانت تضربها في وجهها كلما جرت من كثرتها، تجري بعيدًا حتى وجدت نفسها في مكان مظلم ظلامًا غريبًا، حاولت العودة إلى جدتها لكنها نسيت الطريق أو ربما ضلّت، فشعرت بالخوف والزعر وهي تتقهقر للخلف وتقول في نفسها: (أفيقي يا نورسين، إنه حلم، نعم مجرد حلم، هيا أفيقي هيا).

ولكنها ما زالت في هذا المكان الغريب فسمعت صوتًا يأتي من بعيد، صوتًا لطفل، نعم إنها في أرض الأحلام تستطيع أن تسمع وتتحدث مثلنا، قال الصوت وهو يقترب منها: (زائرة جديدة، مرحبًا بك في أرضي).

أخذت تتخبط في الظلام وهي تتلفت ولا تعرف أين حتى الاتجاه: (أين أنا؟ من أنت؟).

أضاء أصبعه، وكأنه شمعة فظهر وجهه كان يبدو أنه فتاة؛ طفلة في التاسعة من عمرها.. اقتربت منها وهي تضيء لها حتى ترى: (مرحبًا أنا أدعى جايا).

توجست نورسين في نفسها خيفة منها، وتقهقرت إلى الخلف، فاقتربت جايا منها في ثقة، وأشعلت أصبعًا آخر، وهي تنظر للضوء الخارج من يدها ثم قالت: (وما المخيف في طفلة مثلي).

نظرت لها نورسين بغرابة (حسنًا، أنت تشعلين أصبعك يا صغيرة).

قربت الطفلة الضوء منها أكثر وهي تشير إلى المكان حولها (أنا هنا وحدي، لا أحد معي، هذا هو عالمي لا شيء هنا يؤذيك.. هيا أخبريني من أين أنت؟).

تريثت نورسين قليلًا، ثم قالت في نفسها (إنه مجرد حلم آخر، لن يضر شيئًا، ثم إنها مجرد فتاة صغيرة، ما الضير في مجاراتها).

فأخبرتها باسمها وأنها لم تعد ترى الحديقة، ولا تعرف طريق العودة فوضعت جايا يدها على رأسها، وكأنها تفكر ثم قالت: (ولما تريدين العودة إليها؟).

– (حسنًا، جدتي هناك وأنا افتقدتها، وأعلم أنني فعلت خطأ حين تركتها وابتعدت عنها..).

– (هل جدتك تحبك ؟).

– (نعم إنها تحبني جدًّا..).

– (وهل أخبرتك بسر الباب المغلق..؟).

– (كيف علمت به..؟) قالتها نورسين وهي تنظر بغرابة للطفلة، والتي أجابتها وهي تقفز وكأنها تلعب: (أنا أعلم كل شيء هنا، إنه عالمي أرض الأحلام، أنسيتي؟).

صمتت نورسين، وقد اقتنعت بحديثها ثم أعقبت الطفلة قائلة: (أخبريني الآن لما لم تفتحي الباب؟ ألم تخبرك جدتك أنه سبب في كون والدك هكذا وأمور أخرى سيئة؟ ربما إن فتحتيه تجدين حلًّا خلفه!).

قالتها وقد توقفت عن القفز، واقتربت من نورسين تنتظر ردَّها عن السؤال، والتي شعرت بالحيرة في الإجابة ثم أجابتها بعد تفكير: (حسنًا، لقد وعدت جدتي أنني لن أدخله، وعلي أن أفي بوعدي، ثم إنني ضللت الطريق ولا أعرف كيفية العودة). قالت الطفلة: (سأدلك على طريق العودة، لكنني لن أستطيع الدخول إلى الحديقة، هل يمكننا أن نصبح أصدقاء، ولكن لا تخبري جدتك عني رجاءً، هذا هو شرطي لأريك طريق العودة).

– (غريب هذا الشرط، ولكن حسنًا، هيا أخبريني كيف أعود).

اقتربت جايا منها، وقد أضاءت أصابعها العشر كلَّها، وقربت وجهها منها، ثم قالت: (سأجعلك تعودين، ولكن لا تنسي أن عالم

الأحلام يمكنه أن يغير واقعك، لقد فعلتها جدتك من قبل ولا تنسي حين تشتاقين لي عودي، أنا بانتظارك سأفاجئك كثيرًا، والآن هيا أفيقي من نومك وحين تنامين غدًا ستجدين نفسك في حديقة الأزهار مجددًا، وكأن شيئًا لم يكن، لا تنسي يمكنك تغيير حياتك، تذكري كلماتي هذه جيدًا).

فنفخت في وجهها، فانتفضت نورسين، وأفاقت من النوم على ضوء الشمس وهو يضرب عينيها، فقامت من نومها واقتربت ناحية الستائر لتغلق ما اقترب منها من الضوء الذي يشعرها بألم في عينيها، وهي تفكر في هذا الحلم الغريب، فتذكرت الكتاب وأخرجته من تحت وسادتها، وأخذت تقلب صفحاته حتى وجدت بعض الأحرف المكتوبة بطريقة متفرقة عن بعضها (ج. ا. ي.ا) ففهمت أنها جايا، ولكنها لم تفهم ما الذي تعنيه الطفلة أو الكلمة، فالكتاب به ألغاز مثل التي بالأحلام، وهذا يدل على أن عالم الأحلام الذي تراه كل يوم ليس خيالًا، هناك أمرٌ ما به، وعليها أن تعرفه، إنه شغلها الشاغل الآن.

ارتدت ملابسها بسرعة وغادرت غرفتها متوجهة هذه المرة إلى الشط البعيد، الذي قابلت فيه أنسًا أول مرة، كانت تقصد الذهاب إليه عن عمد حتى تعتذر له عمَّا صدر من والدها، افترشت الرمال من تحتها وهي تلعب بحبات الرمال بين يديها، وترسم كما اعتادت بعد أن نظرت في البحر، وفتشته جيدًا حتى اليابسة، ولم تجد أنسًا كان المكان خاليًا تمامًا، أخذها الخيال وهي ترسم، حتى وجدت نفسها قد رسمت صورة لجايا تلك الطفلة الصغيرة التي وجدتها في عالم الأحلام المظلم ليلة

أمس، تركت الرسمة وأخذت تحدق فيها، وهي متعجبة كيف أن يدها قد رسمت جايا دون أن تشعر حتى.

وقبل أن تفيق من التفكير في الرسمة، وجدت يدًا تطرق على كتفها، فنظرت خلفها فإذا هو أنس على كرسيه المتحرك، قال وقد التفَّ بالكرسي ليكون مواجهًا لها: (حسنًا، رسمة رائعة، يبدو أنك موهوبة، من تكون هذه الطفلة يا ترى؟).

لملمت الرمال بيديها، ومسحت بها الرسمة، ثم نفضت عنهما وأشارت: (لا شيء).

شعر أنس أن هناك خطبًا ما بها فتغاضى عن الحديث عن تلك الرسمة وسكت، فبادرته وهي تكتب ما جاءت من أجله: (أنا آسفة عما بدر من عائلتي ليلة أمس).

ابتسم وكأنَّ شيئًا لم يكن: (لا عليكِ، أنا متفهم، إنها ليست المرة الأولى التي أقع مع أناس على شاكلتهم لا يقدِّرون نعم الله، ولكن حقيقةً لقد حزنت لأجلك).

شعرتْ بالإحراج حين قال لها هذه الكلمات، وهمت بالذهاب، فأمسك بيدها أن انتظري: (لم أقصد ما أعنيه، فلتجلسي معي قليلًا، ربما هناك أمر تريدين إخباري به، أشعر أن بداخلك شيئًا تخبئينه.. أعني إن كنت تريدين أن نكون أصدقاء).

ابتسمت وأومأت برأسها وجلست بجواره وهي تنظر للبحر وأمواجه العاتية، تتخبط في أقدامهم العارية، وهم يشعرون بالاستمتاع لها رغم الصمت الذي أطبق على جلستهم هذه... خيَّم الصمت للحظات ثم كتبت نورسين على الرمال: (ماذا إن كنت تعيش عالمًا خياليًّا أفضل من عالمك؟!).

جرَّ أنس قدميه لينزل عن الكرسي ويجلس بجوارها على الرمال، وما أن جلس حتى أمسك بعصا صغيرة كانت ملقاة بجوارهم، وكتب أسفل جملتها:

(سأعيش هذا العالم الجميل، ولكن لن أسمح لعالمي الحقيقي أن يضيع مني هباء منثورًا).

شعرت نورسين بداخلها بالسعادة حين بادلها الكتابة فمسحت كلماتها الأولى وكتبت في حماس: (وماذا إن لم أستطع تغييره؟!).

أمسك بالعصا وكتب أيضًا: (أنت قوية ستستطيعين... أنا واثق من ذلك).

توجهت بناظريها تجاهه وهي تبتسم له نظرة شكر وإعجاب لهذا الشاب الصغير الذي يملك عقلًا كبيرًا استطاع به أن يبدل أحزانها بابتسامة رقيقة في ثوان معدودة.

ثم أمسك بالعصا مجددًا: (ما زلنا صغارًا، نحن في السادسة عشر من العمر، إنه بداية الشباب والمرح، هلمي نلعب قليلًا، أحمل كرة صغيرة في كرسي، هل تريدين اللعب في مياه البحر).

أومأت برأسها موافقة، وهرولت ناحية المياه وهو يزحف وراءها كانت لعبة بسيطة ملأتها بالسعادة، نظراتها لأنس كانت نظرات فخر وإعجاب شديد، إنه شخصية قوية لا يهتم بإعاقته، ولا تشغل له بالًا، يعيش حياته كما يريد، لا يهتم لكلمات أو نظرات من أناس لا تفقه ولا تفهم، فهو يمحو سلبيتهم، بل ربما يمحو وجودهم من حياته.

انتهيا من اللعب وهي تضحك في سعادة بعد أن رجع إلى كرسيه، وهم في طريق العودة سويًّا يتسامران ويضحكان طيلة الطريق،

إنه يفهمها جيدًا حتى إنه أخبرها أنه قد حمَّل كتابًا من الإنترنت لتعليم لغة الإشارة، وهو بصدد تعلمها الآن حتى يتسنى لهم الحديث بسهولة.

وما إن اقتربا من الفندق حتى وجدت والدها واقفًا وواضعًا يديه في جنبه بطريقة تدل على أنه على وشك الانفجار فيها، فتوقفت عن الضحك ونظرت إلى الأرض خجلًا منه، فتبادل والدها مع أنس نظرات حادة يوشك أن ينقضَّ على الفتى بها، فشعر أنس بأنه يسبب لها الإزعاج فاستأذنها في الذهاب وجرَّ كرسيه بيديه وغادر المكان.

أمسكها والدها من ذراعها وجرَّها إلى غرفتها وأغلق الباب خلفه بقوة، وقد استشاط غضبًا، ثم اقترب منها والشرر يتطاير من عينيه: (أخبرتك في السابق أن كُفي عن مصاحبة هؤلاء الحمقي).

فأشارت إليه والدموع تملأ عينيها: (كُفى يا أبي، أرجوك كفى، لقد تعبت من الدموع، اتركني أعيش حياتي قليلًا، اترك لي مساحة كي أحيا، ثم إنهم أناس مثلي ومثلك، وهل أنا حمقاء لأنني مثلهم؟!).

نفخ في وجهها بغيظ ثم تركها وخرج من الغرفة.

ارتمت على سريرها فقد كانت أحضانه هي الباقية لها في ظل هذه الظروف القاسية التي تعيش فيها.. بعد بضع ساعات قليلة كانت قد هدأت وبدأت تفكر في عالم الأحلام، تعلم جيدًا أنها أخطأت حين تركت جدتها ولكنها كانت لحظة انفعال لم تقصدها، ولكن هذا العالم الجميل يشعرها بأنها موجودة بأن هناك حياة أخرى رغم كونه خيالًا تمامًا ولا تصدق ما يحدث إلا أنه يهون عليها ما هي فيه.

الأفكار تتزاحم في عقلها لا تعلم ما الذي عليها فعله حتى، ثم تذكرت أنها تتحدث في هذا العالم الخيالي لها صوت مثل باقي البشر،

لا أحد يعاملها بقسوة فيه حتى المكان المظلم الذي دلفت إليه دون قصد كان ظالمه أكثر حنانًا من عالمها الموحش.

ظلت على هذه الحال حتى غفوت ونامت، وفي النوم تتجدد الملذات، تتجدد الأحلام الجميلة التي تراها جدتها التي كانت بانتظارها، وحديقة الأزهار الرائعة التي تتحول أزهارها كل يوم إلى أشكال أجمل من ذي قبل، فلا تشعر فيها بالملل أبدًا، هرولت ناحية جدتها لتحتضنها وتتأسف لها عما صدر منها حين وجدت أنها عادت مجددًا إلى المكان، والجدة سعيدة تبادلها الشعور بالحب، حتى الأزهار التفَّت حولهما، وكأنه حضن جماعي وكأنهم يشعرون بالسعادة معهما.

ظلت جالسة مع جدتها والضحكة لا تفارقها وهي تجمع الأزهار وتصنع مزهرية رائعة الجمال من أزهار مختلفة الأشكال والألوان، جمالها يسلب القلوب حين سمعت صوتًا ينادي عليها؛ صوتًا خافتًا تعمد ألا يسمعه أحد:

(مرحبًا نورسين أنا هنا انظري خلف الشجرة الكبيرة).

اعتدلت نورسين من مجلسها وهي تتحسس مصدر الصوت حتى وصلت إلى الشجرة الكبيرة، كانت جايا خلفها تستظل بظل إحدى وريقاتها الكبيرة وهي تتلفت حتى لا تراها الجدة: (نورسين أرأيتي! كان كلامي صحيحًا حين أخبرتك أنك ستعودين إلى الجدة).

– (نعم يا جايا، أشكرك حقًّا).

– (شششش، صمتًا حتى لا تسمعنا الجدة).

– (ولِمَا أنت خائفة من أن تراك، إنها طيبة القلب جدًّا).

– (اعلم ذلك، ولكن دعينا من الحديث عن هذا الأمر، هل فتحت الباب المغلق؟).

– (لا أخبرتك لقد وعدت جدتي، وحقًّا أريد أن أعرف: لما عليك الاختباء منها؟!).

– (هل يقلقك يا نورسين اختبائي من جدتك ولا يقلقك باب وراؤه أسرار كبيرة! حتى إن جدتك بنفسها أخبرتك أن هذا الباب كان السبب في تغيير أمور كثيرة).

سكتت نورسين وهي تنظر للباب، ثم تعاود النظر إلى جايا وهي متوترة، لا تعرف حتى كيف تجيبها، فاندفعت جايا تطرق على الحديد وهو ساخن كما يقولون: (انظري نورسين هناك ضوء لامع يخرج من خلف الفتحة الصغيرة بالباب، ضوء يحمل ألوان قوس قزح بداخله، رغم أنه ضعيف وخافت؛ لأن الفتحة ضئيلة إلا أن انعكاسه يبدو واضحًا جليًّا في الزهرة المواجهة للباب، أعلم جيدًا أنك تكرهين حياتك الواقعية، وربما ستكونين أقوى من جدتك وتستطيعين تغيير ما لم تقوى هي عليه، ألم أعدك أنك ستجدين حديقة الأزهار رغم ابتعادك عنها في المرة السابقة وكان وعدي حقًّا؟).

سكتت نورسين، وهي تنظر إلى الضوء الخارج من الباب منعكسًا على الزهرة أمامه، وهي تبتلع ريقها ولا تعرف ما الذي عليها فعله، أمسكت جايا بيدها وهي تنظر إليها نظرة خبيثة، وتشير إلى الجدة: (هيا الآن نورسين، الجدة لا ترانا وهي لا تمل من حمل الأزهار وصنع المزهريات المملة هذه، هيا سأذهب معك لقد كرهت عالمي أيضًا، ثم إنها بضع لحظات لن تشعر بنا الجدة).

تنفست نورسين بصعوبة، وكأن هناك ما يحبس الهواء عنها، وهي ترتعد خوفًا ثم أمسكت جايا بيدها بقوة وهرولت ونورسين معها،

وبسرعة وكأن كل شيء حدث في لمح البصر، وقفت جايا تحمسها: (هيَّا الآن، أنت من يمكنه فتح الباب لا أنا، هيا أنا معك أسرعي).

فأمسكت نورسين بمقبضه الحديدي القديم، وقبل أن تفكر حتى أدارت المقبض بسرعة فانفتح ضوء قوي جدًّا، جعلها لا ترى أمامها، أما الجدة فنظرت وهي تصرخ وترفع يدها: (لا نورسين، لا لم تستمعي لكلامي؟ لقد نقضتِ عهدنا).

قالتها وكأن صوتها يبتعد، ثم اختفى كل شيء حولها، وحل مكانه هذا الضوء الساطع الذي يعمي العيون من قوته، وهي تحاول أن تبعده عن عينيها بكلتا يديها، وتنظر بنصف عين مغلقة وهي تتحسس طريقها، وتنادي على جايا ولكن يبدو أنها فيه وحدها تمامًا.

أخذت تصرخ وهي تنادي: (جايا..جايا.. أين أنت؟ ليتني لم استمع لحديثك، كيف علَيَّ أن أخرج من هنا الآن؟!).

تلفتت يمينًا ويسارًا ولكن لا شيء، أخذت تبحث عن الباب، والذي كان قد اختفى تمامًا وكأنه لم يكن موجودًا من قبل، لا الباب ولا الجدة ولا حتى جايا التي وعدتها أنها ستظل باقية معها.

* * *

الفصل الرابع

(أرض التيه)

وجدت نفسها في عالم لا تنتمي إليه؛ عالم يختلف عن عالمها لا تعرف ما هو حتى، نظرت إلى السماء فإذ بأقمار تدور حولها أقمار، هي سبب هذا الضوء، ورغم أنها تعلم من دراستها أن القمر جسم معتم يعكس أشعَّة الشمس إلا أن هنا يبدو أن كل شيء مختلف؛ القمر يضيء ضوءًا أبيض منير، وكأنه يخرج منه مباشرة، ومع كثرة الأقمار أصبح المكان مضاءًا بطريقة مهولة، طريقة غريبة جدًّا لا توصف.

وجدت شيئًا يخرج من السماء، وكأنه قطعة سحاب كبيرة، تبدو مثل المزلاج؛ أولها في السماء، وآخرها كأنه له جذور ممتدة إلى الأرض، نظرت حولها فوجدت المكان خاليًا تمامًا من كل شيء، تفحصتْه جيدًا، وكأنها تدور حول نفسها، ليس هناك ثَمَّة أي حياة عليه.

بعد تفكير قررت أن تذهب إلى تلك المزلاجة السماوية الغريبة، وأن تمشي عليها حتى تجد آخرها، لربما وجدت شيئًا يساعدها على الخروج من هذا المكان، بالطبع وضعت قدمها على أول تلك المزلاجة العجيبة، وهي ترتجف من الخوف لا تعلم إلى أين تنتهي. أو ما الذي ينتظرها في آخر الطريق، أو ربما أنها ميتة الآن، وترتفع

روحها إلى السماء، أفكار مجنونة كانت تحوم حول رأسها، كانت كلما ارتفعت وجدت قطعة من السحاب مهترئة تقع أسفل قدميها وهي تتأرجح وقد أصبحت في علوٍّ شاهق، وتملَّك بها الخوف بشدة، وهي تنظر إلى أسفل، ثم أغمضت عينيها وبدأت كأنها تزحف من الرعب إلى أن وصلت إلى أعلى نقطة بتلك السحابة الكبيرة، أغمضت عينيها وهي تتنفس الصعداء، وتشجع نفسها في أن تدخل بها فليس هناك شيء تخسره أكثر مما حدث لها بنفيها في هذا المكان المجهول.

وضعت أول قدم بها وهي ترتجف، ثم دفعت نفسها إلى الداخل، وما أن دخلت حتى اختفت السحابة خلفها، ووجدت نفسها في عالم آخر لا يقل غرابة عن أي شيء رأته منذ وطئت أقدامها أرض الأحلام، شارع طويل كبير مليء بالعربيات التي تجرها الأسماك حتى العربات كانت شكلها مختلفًا تمامًا، قطع من السحاب يجلس عليها أناس بشرتهم وردية، وكلهم يبدون سعداء تمامًا الضحكات تملأ وجوههم، كلهم في سن واحد تقريبًا، يبدو أن لا كبار في السن هنا، وكأنها ماتت بالفعل، وها هي الآن في الجنة، فهي تعلم أن في الجنة لا خوف ولا حزن بل سعادة دائمة.

تقدمت خطوات قليلة من فتى ينادي وهو يمسك جرسًا في يديه: (اسرعوا من سيستقل عربة الحوت فليتقدم العربة على وشك الذهاب إلى دنيا الخيال).

أسرع بعض الفتية والفتيات بالولوج إليها، ونورسين واقفة تنظر لما يحدث والدهشة لا تنفك تترك قسمات وجهها الصغير، ما أن مدت قدمها حتى ارتطمت بفتى كان يجري مسرعًا فوقعا سويًّا، وقف الفتى

وهو ينفض التراب الذي يبدو مثل حبات النجوم عن ملابسه غريبة الأطوار تلك، وكأنه خرج من العصور الوسطى بالريف الإنجليزي حمل قبعته وارتداها من جديد، وهو يتفحص نورسين: (حسنًا، وافدة جديدة، مرحبًا بك أيتها الفتاة في الأعماق).

قضبت نورسين عن حاجبيها في غرابة، وهي تحاول أن تفهم ما الذي يعنيه: (أنا لا أفهم شيئًا، هل لك أن تخبرني أين أنا؟).

عدل الفتى من ياقته وهو على عجالة من أمره: (إنكِ في الأعماق؛ أرض التِّيه).

– (ما الذي تعنيه بأرض التيه أو الأعماق هذه؟ لا أفهم شيئا).

– (لا وقت لدي للشرح، فأنا ذاهب إلى دنيا الخيال).

– (عجبًا لم أفهم الأعماق، حتى أفهم دنيا الخيال هذه).

تأفف الفتى وهو يهرول بعيدًا عنها ويستقلّ حافلة الحيتان، قال في عجالة وهو يرفع صوته لتسمعه من داخل العربة: (ابحثي عن رأس الحكمة، سترشدك إلى ما تمنيتيه).

ثم أدار وجهه عنها وبدأت الحافلة في القيام، هزّ الحوت ذيله وفي لمح البصر كانت قد اختفت من أمامها.

ابتلعت نورسين ريقها وهي تتجول ببطء شديد في الأنحاء لا تعرف أين هي؟ وأين رأس الحكمة هذه، حتى وجدت شاشة عملاقة تظهر إعلانات من بعيد لفتاة تحمل مجلدًا كبيرًا، وكأنها تعلن عن شيء هام، اقتربت منها لربما تدلها على شيء وقفت أمام الشاشة الكبيرة متوجهة بناظريها تجاهها، والفتاة ممسكة بالمجلد، وهي تقول: (مرحبًا بكم في الأعماق، هنا رأس الحكمة، تعال إلينا ستجد كل ما تبحث عنه).

شعرت نورسين بالسعادة، ولكنها كانت تتفحص المكان ولم تعرف بعد كيفية الوصول إلى رأس الحكمة هذه، فقالت بصوت خافت: (يا إلهي، كيف الوصول إلى رأس الحكمة هذه؟!).

فوجدت الفتاة على الشاشة تبتسم وأخرجت يدها منها كأنها مجرد موجات عادية يمكنك اجتيازها لا شاشة زجاجية، وقالت بلطف لنورسين الواقفة في ذهول أمامها:

– (مرحبًا بك في رأس الحكمة، هلمِّي وادخلي).

أمسكت نورسين بيدها ودخلت معها وهي لا تصدق ما تراه فوجدت نفسها قد أصبحت في غرفة كبيرة تشبه المكتبة العملاقة، وتلك الفتاة تحمل المجلد في يديها وهي تنظر لنورسين وتبتسم فبادرت بالترحيب بها وهي تخطوا خطوات هادئة بين الكتب، ثم قالت لنورسين: (جديدة أنت تبدين كذلك؟)

أجابتها الأخرى وهي تنظر لكل ركن في غرابة، وخاصة تلك الكتب التي كانت تحمل أجنحة الفراشات الملونة الجميلة تنفض عن نفسها بعض الغبار النجمي، ثم تعود لتجلس مكانها، وكأن الكتب حية هنا لم تنفك نورسين عن ذهولها والفتاة عن ابتسامتها التي لا تتغير.

– (أنا لا افهم شيء أين انا؟).

– (أنت في راس الحكمة).

– (حسنًا، سمعت هذا من قبل ولكني ما زلت لا أفهم).

تقدمت الفتاة وأشارت إلى كتاب فخرجت منه أجنحة الفراشات وهو يتحرك من مكانه ما أن أشارت إليه وفتحت صفحاته من تلقاء نفسه، كانت الرسومات بداخله لا تختلف كثيرًا عن تلك الرسومات

بالكتاب الغريب الذي تركته لها جدتها فأمسكت الفتاة بالرسومات وكأنها تخرج حبلًا من الكتاب فخرجت مع يدها، ومن ثَمَّ ألقت بها إلى أعلى فتحولت إلى سلم عال شفاف امتد إلى سقف المكتبه.

وقفت على أول الدرج ونادت على نورسين أن اتبعيني، فتبعتها وهي تنظر تتلفت خائفة، أما الأخرى فقد استقلت الدرج بكل ثقة حتى وصلت إلى آخر نقطة.

ووقفت تنتظر نورسين التي كانت تتلكأ خلفها وهي تمعن النظر في كل ما يدور حولها، وما أن وصلت حتى قالت لها الفتاة: (الآن انظري إلى أسفل).

فما أن نظرت حتى وجدت المكتبة عبارة عن عقل بشري ضخم، تعجبت من منظره وأدارت وجهها تجاه الفتاة ثم قالت: (ما زلت لا أفهم!).

ابتسمت الأخرى وأخذت تشير بأصبعها تجاه الشعيرات الدموية الصغيرة التي كانت تكسوه ثم قالت: (انظري هنا، هذا هو العقل البشري، إنه يحمل في داخله أسرارًا كونية ومدارج لا يعلمها إلا الله، أتعلمين كيف لفرعون أن يرى رؤيا تتحقق وهو ملك جبار قاسي القلب؟ ما قصدته هنا أن هناك نقطة بعقولنا تحمل في داخلها عوالم أكثر مما يحمل كوننا كله، نقطة ترين فيها أشياء ربما تكون حقيقة وأنت لا تدري، مثلًا كيف اخترع تومس أدسون المصباح الكهربائي، أو كيف توصل نيوتن إلى الجاذبية الأرضية من مجرد تفاحة سقطت من شجرة؟ إنه العقل لديه قوة وحكمة وهو رأس حكمتنا جميعا).

- (حسنًا ما زلت لا أفهم).

– (عالم الأحلام مختلف عن الواقع، ولكن يمكنك أن تتجولي في أماكن لم تكن في الحسبان أو لم تكوني لتفكري فيها من قبل، أخبريني كيف لعقلك أن يدخل إلى أماكن وعوالم لم يعرف عنها شيئًا ربما يرى كائنات لم يشاهدها في حياته، ما أقصده هنا أنك بداخل أقوى نقطة في العقل البشري (أرض الأعماق) أنها تحمل نقطة ارتكاز الكون كله هنا).

– (وهل هذا الباب الذي دخلت منه فتح لي عوالم كونية أخرى؟ هل هذا ما تقصدين؟).

– (ما أقصده يا عزيزتي.. هنا) وأشارت بأصبعها على دماغ نورسين، ثم أكملت كلامها: (العقل يا عزيزتي لا محدود؛ مثلًا في فيلم الرجل العنكبوت: لِمَا على العنكبوت أن يقرص الفتى الطيب، هل من أجل أن ينقذ الكون؟ لِمَا لم يقم العنكبوت بقرص الفتاة صديقته مثلًا.. أو شخص شرير ليس بطيب؟!!) فكري في هذا الأمر، عالمنا هنا يمكنه أن يفتح آفاق عقلك إلى مدارج أخرى لم تكن في حسبانك من قبل.. ربما عليك أن تزوري عالم الخيال، الكل هنا ينتظر زيارته).

سرحت نورسين بخيالها لدقيقة وهي تفكر في كلام الفتاة ثم قالت: (ولما على جايا أن تجعلني أدخل إلى هنا؟).

عدلت الفتاة من عويناتها، واحتضنت كتابًا آخر كانت تتفحصه، ثم وقفت على أول الدرج استعدادًا للنزول وهي تجيبها دون الالتفات إليها:

– (عليك أن تفكري أنت لما فعلت جايا بك ما كان؟!).

قالتها ثم تركت نورسين ونزلت إلى أسفل تتصفح باقي الكتب وتلعب معها، وكأنها فراشات حقيقية تحوم حولها ثم تعود إلى مكانها من جديد.

تبعتها ونزلت الدرج أيضًا وعقلها يفكر في تلك الأمور التي عرضتها عليها الفتاة، ما زالت لا تفهم ما الذي يعنيه حديثها بعد، وقفت في وسط الغرفة الكبيرة بعد أن نزلت وتحول السلم إلى رسومات دخلت إلى الكتاب مرة أخرى.

سمعت نورسين صوت يهمس من خلفها: (مرحبًا أنا..).

وقبل أن يكمل الشيء حديثه كانت تصرخ وتضربه بيديها، اقتربت الفتاة أمينة المكتبة منها وهي تنظر لها في غرابة، وما أن رأت ما يتحدث حتى ابتسمت ومدت يدها، فخرجت من خلف الكتب دعسوقة ملونة لها عينان كبيرتان، وأقدام وأيد آدمية، وتبدو مثل قزم صغير، جسدها مزيج بين البشر والحشرات، تركيبتها عجيبة جدًّا، جلست على ذراع الفتاة وهي تنظر بغرابة لنورسين التي خافت منها، ومن ثَمَّ قالت: (لما هي خائفة هكذا؟!).

أجابتها الفتاة وقد قضبت عن حاجبيها وخلعت عويناتها وأعادتهم إلى مكانهم مرة أخرى وهي تنظر لنورسين: (حسنًا، إنها مستجدة أيتها الدعسوقة، ولكن الغريب هنا هو اختيارك أن تظهري لها منذ زمن لم تختارين آدمي).

نزلت من على يد الفتاة وحاولت أن تمتطي يد نورسين التي ابتعدت خائفة، وهي تدفعها بعيدًا عنها في خوف، وكأنها تنفض الغبار عنها، لكن الفتاة أمسكت بيد نورسين بكل هدوء وهي تقول: (أحسني

العمل مع الدعسوقة يا عزيزتي، فمنذ زمن بعيد لم أجدها تختار آدميًّا في عالم الأحلام).

جذبت نورسين ذراعها منها وهي خائفة ثم قالت: (ما الذي تعنيه باختيار آدمي، وتلك الحشرة ذات الشكل المخيف ترعبني.. ثم إنها تتحدث..!!).

– (حسنًا حسنًا، دعيني أشرح لك.. عالمنا هنا كما أخبرتك مختلف تمامًا، ونادرًا ما يوجد فيه الحشرات، ولكن حين توجد إحداهن فإنها تعني أنها اختارت آدميًّا ذا شأن مهم، وهي اختارتك، إنه قدرك يا فتاة وعليك الانصياع له).

أجابت نورسين في غيظ: (منذ وطئت أقدامي هذه الأرض الغريبة ويتم إخباري بأشياء عجيبة وأنا لا أفهم أي شيء مما يدور هنا).

اقتربت منها الدعسوقةُ وهي تدور حولها وتتفحصها قائلة: (آه! رائع يا إلهي! إنك نورسين! لطالما أخبرتني الجدة عنك، إنك هي، أنفي لم تكذبني وهي تدفعني إلى المكتبة للبحث عن رائحتك المميزة، لقد أحسنت أنفي الاشتمام).

– (هل أخبرتك الجدة عني؟).

– (نعم كثيرًا، كانت تعلم أنك ستفتحين الباب رغم تحذيراتها، وأخبرتني أن اعتني بك جيدًا).

– (حقًّا هل كانت تعلم؟!).

– (آه! يا إلهي، يبدو أنك لست بذكاء جدتك وستتعبيني كثيرًا).

قالتها وهي تتأفف.. وما زالت نورسين محملقة، لا تفهم شيئًا، فأمسكت الدعسوقة بيدها وجذبتها، وهي تقول: (هيا يا فتاة إلى أرض الخيال، ربما تجدين ما يجعلك تشغلين عقلك الذي لا يعمل هذا).

تبعتها وهي تجر أقدامها، وكأن بها ثقلًا من صدمتها أما عن فتاة المكتبة فكانت تلوح لهم، والابتسامة على وجهها: (رحلة سعيدة أيها المغامرون).

وقفت نورسين بجوار الدعسوقة وهي تشير إلى سمكة قرش ضخمة قادمة: (هاهي وسيلة نقل هيا بنا).

أوقفتها الدعسوقة وهي تقول: (قفي يا فتاة، فالحيتان فقط من يمكنها الذهاب إلى أرض الخيال، كل سمكة مكلفة بالذهاب إلى عالم مختلف).

– (وكم عدد هذه العوالم الكثيرة؟).

ضحكت الدعسوقة: (هل يمكنك أن تحسبي كم عدد الخيالات؟! إنها لا تحصى، وكلما انفتح العقل البشري على خيال جديد يفتح في مقابله عالم كامل في دنيا الخيال، ألم تخبرك فتاة المكتبة عن العقل وإمكانياته التي لا يمكن توقعها، إنه محور الكون يا فتاة).

ثم جذبتها وهرولت سريعًا وهي تقول: (هاهو حوت قادم، أسرعي يا عزيزتي، إن الحيتان مزاجية جدًّا وقد تمضي دون أن تحمل ركابًا).

قفزت الدعسوقة بداخل العربة التي يجرها الحوت، وقفزت معها نورسين، ثم أخرجت الدعسوقة من خلف ظهرها عصا غريبة الشكل، تبدو رفيعة من الأسفل وغليظة من الأعلى، ولها رأس دائرية

وكأن بها تموجات على شكل مثلثات صغيرة في رأسها الدائري، وبمجرد ولوج نورسين إلى العربة أمسكت الدعسوقة بالعصا وقربتها من ذيل الحوت فاهتز بقوة، وفي لمح البصر كان قد اختفى من المكان.

تعجبت نورسين من فعلتها وهي تسألها: (لما عليك أن تفعلي هذا بالحوت؟).

أجابتها الدعسوقة وهي تعيد العصا خلف ظهرها مجددًا: (لا نريد ركابًا آخرين معنا، فأنا لا أريد أن يعلم كل من في عالم الأحلام أنني في صحبة آدمية، فهم يعلمون ما الذي يعنيه هذا).

– (وما الذي يعنيه هذا؟).

– (يا إلهي! يا فتاة أنت لست ذكية بالمرة، ألم تخبرك فتاة المكتبة، عليك الانتباه لكل كلمة تقال لك، هيا بنا لقد وصلنا إننا الآن في عالم الخيال).

نزلت نورسين وهي تحملق، وقد فغرت فاها وهي تنظر إلى المكان الغريب من حولها، ليست هناك سماء، إنه عبارة عن كوكب ضخم يوجد به كل الألوان التي يمكن تخليها وفي يحمل لون في داخلة ألوان أخرى خلابة وبديعة تضيء بلمعان، وكأن بها مليون نجمة متجمعة في كل جزء من ثناياها.

أشارت الدعسوقة إلى لون قريب من القرمزي ودخلت إليه، وهي تشير لنورسين أن تتبعها، وفور دخولهم كان المكان مثل كوكب آخر داخل الكوكب الكبير، شيء عجيب هذا المكان، وكأنك كلما دخلت لكوكب وجدت بداخله كواكب أخرى متداخلة بطريقة غريبة، كان بداخل اللون الذي يشبه في تركيبه الكوكب زهور الخزامى تملأ

المكان، تتمايل في هدوء، وكأن هناك ريحًا خفيفة ترقص معها، فقطفت الدعسوقة زهرة قد اختارتها بعناية وكأنها خبيرة بتلك الأزهار وأعطتها لنورسين وهي تقول لها: (استنشقي عطرها هيا).

اقتربت منها نورسين ببطء، وهي تنظر للزهرة وتقرب أنفها في خوف،

وما أن استنشقت عطرها الفواح حتى أصبحت تدور في الهوار هي والدعسوقة، ودخلا إلى باطن الزهرة، وقعت نورسين بداخلها، والتي كان داخلها يشبه سطح الزجاج، يمكنك أن ترى من خلاله، أشارت لها الدعسوقة:: (انظري إنها أنت).

وجدت نفسها وقد سقطت على بطنها، وكأنها مستلقية تنظر من خلال الشيء الزجاجي الشفاف بداخل الزهرة أسفل منها، كان المكان من أسفلها يشبه غرفة الجدة، فوجدت نفسها وهي طفلة صغيرة جالسة مع جدتها، أمعنت النظر جيدًا، كان يوم أن أعطتها عقد اللؤلؤ بعد أن أخذته منها ونامت، وجدت جدتها تخرج الكتاب من أسفل وسادتها وتفتح صفحة بها رسمة للدعسوقة، وقد بدا عليها القلق وهي تنظر للرسمة وتقول: (عديني أيتها الدعسوقة أن تهتمي بحفيدتي جيدًا، أعلم أنها لن تستمع لي فأنا لن أكون بجوارها حين تكبر، ولن أربيها كما أريد، ربما كاظم ولدي سيدفعها للهرب من عالمه إلى عالم الأحلام، إنه قاسٍ جدًا معها، وأعلم أنها ستجد في عالم الأحلام ملاذًا من بعدي).

أغلقت الكتاب واحتضنته وهي تهمس وعينيها صوب الفتاة الصغيرة النائمة بجوارها.

(أعلم أنك ستفين بوعدك لي أيتها الدعسوقة).

ومن ثَمَّ وضعت الكتاب أسفل وسادتها مرة أخرى، في تلك اللحظة لفظتهم الزهرة وخرجوا منها بعد أن انتهى المشهد مباشرة.

كان عقل نورسين يكاد يطير منها من هول ما تراه، فنظرت للدعسوقة في عجب والتي كانت تغمز لها وتشير إلى باقي الأزهار وتقول: (إنها ذكرياتك هنا في كل زهرة من زهور الخُزامى تحمل بداخلها ذكريات لك، أتدرين أنها أجمل زهور في الكون ولقد تحولت كل لحظة مرت بحياتك إلى زهرة منهن، أتذكر جدتك كانت ذكرياتها تأخذ شكل زهرة الأقحوان الجميلة، لا تختلفن عن بعضكن كثيرًا ولكنها ترى فيك الأمل، حسنًا تفقدي الأزهار ربما وجدت ذكرى ما يمكنها أن تساعدك).

أخذت نورسين تحوم بين الأزهار والتي كانت تتمايل مع بعض نسمات الهواء الرقيقة من حولها إلى أن وجدت زهرة من بينهم تبدو لامعة أكثر من غيرها فأمسكت بها وفعلت كما علمتها الدعسوقة.

ما أن استنشقتها حتى دخلت لترى ما تحمله من ذكرى، فكانت ما لم تتوقعه إنه (أنس) بعد أن سمع ما لا يرضيه من والدها ومضى بعيدًا وقف ينظر إليها وهي تجري إلى غرفتها وتنهد ثم قال: (كم جميلة ورقيقة هذه الفتاة، ليتني أستطيع مساعدتها..)، ثم سكت قليلًا وأكمل حديثه: (أعدك أنني لن أتخلى عنك منذ هذه اللحظة).

تعجبت من حديثه أنه يعدها أن يساعدها وألا يتخلى عنها أبدًا دون أن يكون بينهما أي مصلحة كما تعودت مع عائلتها.

توقفت نورسين وقد خرجت من الزهرة، وقد اعتراها الحزن والغيظ، وملامحها بدأت تصبح أكثر حِدَّة وهي تنظر للدعسوقة: (الآن سأتوقف، عليك إخباري كل شيء؛ لِمَا على جايا أن تأتي بي إلى هنا؟ وما قصة عالم الخيال هذا الذي دفعتني للمجيء إليه؟ أصبحت مثل دمية بين يديكم تتلقفونها وأنا أجهل ما يحدث حولي، منذ الآن وصاعدًا لن أبرح مكاني حتى أعلم ما الذي يحدث؟ وكيف أنني لا أستطيع العودة إلى عالم الواقع من جديد؟!).

ابتسمت الدعسوقة، وجلست وهي تتفحص نفس المكان الذي أخرجت منه العصا، فيبدو أنه جيب تحمِل فيه أمتعتها، ثم أخرجت زهرة أقحوان صغيرة تبدو ذابلة بعض الشيء، وأطرافها جافة، أمسكتها بحرص وهي تمررها إلى نورسين وتقول لها: (لقد أعطتني جدتك إياها، إنها تحمل ذكرى هامة لها، وقد وعدتها أن أعطيك إياها حين ألقاك).

أمسكتها نورسين بحرص شديد وهي تنظر بغرابة، ثم قربتها بحرص من أنفها لتستنشق عطرها ورأت ذكرى جدتها: (كانت الجدة شابة في مقتبل العمر وهي تتمشي في غرفتها، ووالدها كاظم طفل صغير، جلس بجوارها وهو يتفحص الكتاب بين يديها ويقول لها: (أمي هذا الكتاب به فتاة رأيتها البارحة في منامي، ولعبنا سويًّا).

وضعت الأم يدها على قلبها وهي تنظر لابنها: (يا إلهي، جايا! هل لعبت مع جايا؟!).

– (وما ضير اللعب معها؟).

– (انظر لي يا كاظم، وأخبرني ما حدث بالضبط، هل ذهبت إلى الحديقة؟).

– (نعم، وجدت حديقة في منامي، وتتبعتها حتى وجدت هذه الطفلة ولعبنا سويًّا).

لم تكمل الأم حديثها حتى ظهر وجه لها في المرآة يشبهها تمامًا فنظرت في خوف وأمسكت بوليدها وقالت له: (كاظم، ابتعد من هنا الآن علَيّ أن أنهي أمرًا ما).

خرج الطفل وأغلقت الباب جيدًا خلفه، وعادت للمرآة تتحدث إليها: (لما عليك أن تفعلي هذا؟).

أجاب الوجه في المرآة: (لم تتخلصي مني بعد، ثم إنك فتحت الباب دون أن تدفعي ثمن خطئك وعدم الاستماع لحديث أمك).

ثار غضبها وهي تنظر للمرآة وتقول: (ابتعدي عن ابني، إنه لا ينتمي إليكم، إنه حتى لم يراني في الحديقة، لقد تلاعبتي به، هو لا ينتمي إلى عالم الأحلام).

أجابها الوجه وهو يضحك، وقد بدى ضبابيًّا: (الآن كاظم معنا، أنت أضعف من استعادته).

ثم اختفي تمامًا، صرخت وهي تنادي عليه أنه يعود دون جدوى، فجلست على الكرسي المقابل للمرآة تبكي وتنتحب.

ثم اعتدلت من مجلسها وهرولت ناحية غرفة كاظم، فوجدته ممسكًا بكل لعبه يضربها بيديه ويقتلع عيونها، احتضنته وهي تبكي: (لا، كاظم ليس عليك أن تكون غليظ القلب، لا تجعلهم يمتصون الخير منك، لن تهنأ في حياتك يا ولدي فالشر يجلب الشر).

ابتعد عنها الولد قائلًا: (إنه ليس خطأك يا أمي، لقد خيرتني، وأنا اخترت أن أكون صاحب مال ونفوذ، فحياة الفقر التي نعيشها هنا لا أنتمي إليها).

– (يمكننا أن نعيش حياة سعيدة بعيدا عن حياة تبعدنا عن الله يا ولدي وتودي بنا في النهاية إلى الهلاك.. أنا لا أصدق أنني أجادل طفلًا في تلك الأمور وكأنك لست ولدي.. وكأنك في عمر ليس عمرك.. انظر لي يا كاظم، وأخبرني الحقيقة هل هناك روح شريرة تتلبسك؟!).

– (ليس هناك أية أرواح يا أمي، إنها فقط فتحت عيني على أمور مستقبلية وأنا ذكي كفاية كي أختار).

– (لقد أسلمتَ روحك للشيطان يا ولدي)

– (لم أسلمها للشيطان، فقط استمعت لبعض نصائحه، الآن يا أمي سيتحول كل شيء، أنا سأكبر وأنت ستكونين عجوزًا، لن أنتظر حتى أكبر).

– (ما الذي تعنيه يا كاظم.. ستضيع حياتك وتدمر طفولتك).

– (لا لن أدمر شيئًا، والآن عليك أن تستعدي لتوديع شبابك، إنها اللحظة الحاسمة)، ثم أغمض عينيه وقال وهو يرفع يديه ويديرهما في الهواء: (الآن جايا، يمكنك الاستيلاء على طفولتي وعلى شباب أمي).

خرجت جايا وكأنها روح شريرة حبيسة الهواء، اقتلعت منهم الشباب والطفولة، كأنها تقتلع جذور الأشجار، والأم حاولت أن تبكي أو تصرخ أو حتى تستنجد، تلجمت تمامًا عن الحديث، أما عن جايا والتي كانت تبدو مثل مارد كبير بجسد ضخم يحتضنهم قالت وهي تضحك بعد أن أخذت مبتغاها: (الآن يا عزيزتي أخذت مرادي واعلمي أن كل من يرفض الاستماع لحديث من هو أكبر منه سيجلب على نفسه ما لا يحمد عقباه).

بكت الجدة بعد أن أصبحت عجوزًا وراح شبابها ثم قالت: (لقد دمرتني يا جايا، ودمرت ولدي، ليتني لم أستمع لك ليتني استمعت لحديث أمي حين أخبرتني).

ضحكت جايا بصوت جهوري ضخم وكأن له أصداء كثيرة، وقالت وهي تنظر لكاظم الذي أصبح شابًّا قوي البنيه نائمًا لا يستمع لشيء مما حدث بينهم: (استمعي لي يا عزيزتي لن يستطيع أحد إيقافي، وأخبري دعسوقتك الغبية التي اختارتك أنها أساءت الاختيار، والآن ستعودين إلى حديقة الأزهار في أحلامك فقط، ولن يسمح لك أبدًا بالدخول إلى أرض الخيال، لقد أضعت فرصتك).

كانت الجدة تبكي وتتوسلها: (أرجوك لقد أخذت مني كل شيء.. دمرتيني، إن كُتب لي أحفاد ابتعدي عنهم، وأنا أعلم أن ما أوقعت نفسي فيه أستحقه).

- (إن كان لك أحفاد وحاولوا الانصياع لأوامرك سأدمرهم).

- (أيتها الشريرة جايا، وإن انصاعوا لأوامري لما عليك تدميرهم؟!).

أصبح صوت جايا أضخم من ذي قبل وقالت: (الآن اختلط الواقع بالخيال، يمكنني الخروج كيفما أشاء، ومن يفتح الباب ظانًّا منه أنه سيدمرني ويحرر عالم الخيال مني سأستولي على أعز ما يملك كما فعلت معك).

وتركتها واختفت، انهارت الجدة تبكي وتلوم نفسها وهي تقول: (ليت أحدهم يستطيع تحرير عالم الخيال من تلك الآفة الشيطانية منك يا جايا، ليت الله يجلب لنا من يحرر خيالاتنا من الأشرار، ونعود لا نتخيل إلا السلام والحب من جديد).

جلست نورسين بجوار الدعسوقة، لا تصدق ما رأته عيناها، ثم سألتها وقد كاد عقلها أن يطير: (أخبريني أيتها الدعسوقة.. هل ما رأيته حقيقة؟! هل أبي فعل هذا وإن كان أعطاني الكتاب لما عليه إعطائي إياه؟!

– (كان يحاول ألا يعطيك الكتاب أحيانا أراه لا يكترث إلا للمال وأحيانًا أخرى أظن أنه استمع لحديث جايا حينما أخبرته أن عليه أن يعطي الكتاب لمن تختاره أمه).

– (وهل اختارتني الجدة أم جايا؟!).

– (صغيرتي نورسين حقيقة أنا لا أعلم من منهم، ولكني أعلم تمامًا أن أرض الأحلام هي من اختارتك).

– (لكني ضعيفة أيتها الدعسوقة، أنا حتى من ذوي الاحتياجات في الواقع لا صوت لي!).

– (ومن أدراك أن لا صوت لك يا فتاة، وما الذي يعنيه كونك في أرض الواقع بكماء؟ القوة الحقيقة تكمن هنا.. وهنا..).

وأشارت الدعسوقة إلى عقلها وقلبها، ثم أكملت حديثها: (هذان الاثنان لديهما قوة يمكنها تغيير العالمين سويًّا.. عليك أن تكوني قوية وألا تهابي شيئًا وأن تواجهي مخاوفك.. والأهم من كل هذا أن تحاربي الشر).

– (ولكن الجدة فتحت الباب قبلي، وحدث لها هذا الأمر الفظيع، هل سيحدث لي مثلها؟!).

– (جدتك بعد أن فتحت الباب، التقينا أنا وهي، وكان عليها أن تنجح في المهمة ولكن..).

- (هل فشلت جدتي؟!).

- (لم تنجح ولم يكن فريقها ذا قوة حتى تكمل للنهاية وتتخلص من جايا، لذا ازدادت قوة جايا وفعلت بها ما كان).

- (فريق!! ومهمة!! لا أفهم ما تعنيه).

- (كل شيء في أوانه يا صغيرة كل شيء في أوانه).

قامت نورسين من مكانها وهي خائفة لا تعرف ما الذي عليها فعله، أو كيف لحياتها أن تكون في عالم الخيال الذي لا تعرف عنه شيئًا، بل وكيف تم اختيارها، إنها ترى نفسها ضعيفة لا قوة لها لم تقوي حتى على امتلاك رأيها الحر وإبداء ما تريد، كيف لفتاة عاجزة أن تملك قوة تحارب فيها شر لا تعرف كينونته حتى؟! أو حتى كيف لها أن تحرر خيال الناس من الشر؟! إن الشر لا نهاية له، فهل إن هزمته في دنيا الخيال سينتهي وجوده في العالمين كما أخبرتها الدعسوقة أم أنها مجرد أحلام وترَّهات ليس إلا.

وقفت وكأنها عاجزة ليست فقط عن الكلام كما في أرض الواقع، ولكن عن الفعل أيضًا.

اقتربت الدعسوقة منها حين رأتها في حالة من الحيرة الشديدة، ثم قالت:

(أجسادنا مجرد أوعية تحمل ما هو أقوى من أي شيء، إنه العقل؛ قوة العقل لم يخلقها الله هباء يا فتاتي إنها لا حدود لها، لذلك هناك من يستخدمها في الخير وهناك من يستخدمها في الشر، حتى وإن كان الإنسان لديه بعض من الإعاقة العقلية فإن الله لم يخلقه سدى، هناك جزء في عقله يحمل قوة لا نقدر عليها نحن العقلاء، وإن كنت

أنت تحملين أي جزء من الإعاقة في عالم الواقع فإنه لا يعني أنك عاجزة، بل إنه يعني أن لديك قوة أقوى من الأسوياء حتى، كما أخبرتك استخدميها، اجعلي عقلك ينير عالم الخيال كله، ابحثي عن مداخل القوة فيه، ستجدينها، أنا أؤمن بك يا فتاة).

* * *

الفصل الخامس

(الانعكاس)

كان على نورسين أن تبحث عن حلول، هي لا تعلم كيف أوقعت نفسها في هذا المكان الغريب، والأدهى من كل هذا هو والدها، لم تكن تعرف الحقيقة من قبل، لكنها الآن فهمت لما كانت تقول لها جدتها إنها كانت السبب فيما حدث له، كان كل ما يشغلها في تلك اللحظة أنها لا تريد أن تكون ضعيفة فتحتل جايا واقعها وتدمر أحبتها كما فعلت مع جدتها، بل تريد إنقاذ الوضع إن استطاعت وإنقاذ عالم الخيال والواقع معا).

خرجت من ذلك الكوكب المليء بزهرات الخزامى والذي من المفترض أنه يحمل ذكرياتها، ووقفت تنظر إلى باقي الكواكب أمامها، والتي لا حصر لها ولا عدد، وعلامات الحزن تعتريها، أما الدعسوقة فقد وقفت بجوارها منتظرة منها أية ردة فعل، لكن يبدو أنها كانت في حالة خوف وتشوش، جعلتها تنظر حولها بحزن، وهي محملقة والخوف يعتريها تتفحص الكواكب حولها، ثم مشت مطأطئة الرأس، وجلست على صخرة من الصخور الملقاة أسفل الألوان التي تحمل الكواكب؛ صخرة تبدو كنوع من أنواع الزمرد الكبير الحجم، قالت دون أن ترفع رأسها حتى: (عالم جميل مثل هذا إن كان في عالم الواقع

لَجُنَّ جنونُ البشر من جماله، كيف يوجد فيه شر؟! وهل كل الكواكب تحمل الذكريات؟!).

افترشت الدعسوقة الأرض النجمية أسفلها وأجابتها: (الشر موجود في كل مكان حتى في أحلامنا، أما عن ذلك الكوكب الذي يحمل الذكريات يتكون فقط للفتاة التي تختارها الدعسوقة، لقد كُوِّنَ فور اختياري لك، وسيبقى إلى حين تنتهين من مهمتك).

رفعت نورسين رأسها تجاهها وعينيها تحمل نظرات التعجب والغرابة: (ما الذي تعنيه بحتى أكمل المهمة؟).

– (ما رأيت في ذكرى جدتك؟ إنها جايا أتت بك إلى هنا لتسرق براءتك وطيبة قلبك كما فعلت مع والدك، أو تسرق شبابك كما فعلت مع جدتك، وكما فعلت مع غيرهم إنها شر كبير يتخفى في عالم جميل تتوارى خلفه. وهي مهمتك الآن الهروب منها إن أمكن، أو محاربتها إن كنت المنشودة).

– (أنا خائفة أيتها الدعسوقة ولا أفهم ما الذي يجري.. كيف أتخفى بل وكيف أحارب شيئًا لا أعرفه؟! ثم لما علَيَّ أن أكون في هذا العالم الغريب الذي ما زلت أجهل وجوده، بل لما عليها أن تختارني أنا؟ وما هذا العالم الغريب الذي أقحمت نفسي فيه؟!!).

قالتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ربَّتت الدعسوقة على كتفها بحنان ثم قالت: (لا يمكن أن يدخل عالم الخيال إلا ذو قلب طيب، فهذا العالم لا يسمح إلا لمن يحمل البراءة في قلبه بالدخول إليه، لذلك ما كان على جايا إلا اختيارك بسهولة).

سكتت نورسين لبرهة وهي تفكر في حديثها:

– (إذن، ولما على هذا العالم ألا يدخله إلا ذو القلب الطاهر فتفتك به جايا وتدمره؟!).

– (الحقيقة يا عزيزتي، الشر موجود في كل مكان كما أخبرتك بالسابق، الشيطان في عالم الواقع، هو الآفة التي تخرب حياتكم، أما هنا فيمكنك اعتبار جايا في آفاتنا).

– (وهل في كل تلك الكواكب التي لا تحصين عددها لا يوجد من استطاع التخلص من جايا؟!).

– (ما زلنا في انتظار من يخلصنا منها، الله المستعان نورسين، قادر أن يبعث الله من يريح العالم الخيالي منها).

قامت من مكانها بسرعة، وهي تشعر بالحماس، ثم اتجهت بناظريها إلى الدعسوقة قائلة: (هل يمكن أن ألتقي هنا في عالم الخيال بأحد من عالم الواقع؟ ربما أستعين بأصدقائي لمساعدتي، ألم تخبريني أن هنا عكس الواقع، أعني أنني هنا أتحدث مثل باقي البشر العاديين).

ابتسمت لها الدعسوقة، وقالت: (بدأ عقلك يفكر يا صغيرتي، مرحى لك، نعم.. نعم كل ما قُلْتِيه صحيح).

سمعت منها نورسين هذه الكلمات ووقفت تتلفت وتنظر إلى الألوان الرائعة في عالم الخيال وهي تدور بناظريها: (تُرى في تلك الكواكب هل يمكن أن أجد أصدقائي؟!).

ابتسمت الدعسوقة: (نعم يمكنك أن تخلقي عالمك الخاص وتجمعين فيه من تريدين شرط أن يكون ذا قلب طيب).

فكرت الفتاة في كلامها قليلًا ثم قالت: (كيف أفعل ذلك؟!).

أمسكتها من يديها وهي تقول: (افعلي مثل ما أفعل).

وأغمضت عينيها وهي ممسكة بكلتا يديها، ثم قالت لها وهي تتنفس بهدوء:

- (أطلقي العنان لعقلك يا صغيرتي، اجعليه يسبح في دنيا الخيال، اخلقي عالمك الخاص).

أمسكت نورسين بيديها وفعلت مثلما تفعل الأخرى، وهي تتخيل عالمًا جديدًا كما كانت تتمناه في حياتها الواقعية، جزيرة صغيرة مطلة على بحر كبير؛ مياهه نقية لا يشوبها شيء، به بعض الأسماك الصغيرة الملونة التي ترقص فرحًا بين أحضانه، وبعض الشجيرات وجزء من حديقة الأزهار الجميلة التي كانت ترى فيها جدتها، ومن ثَمَّ تخيلت كل من أحبتهم حتى والدها ووالدتها، وكل من مر عليها في حياتها وكانت تكن له مشاعر طيبة.

ومن ثَمَّ فتحتا عينيهما سويا كما لو كانت الدعسوقة تشاهد ما تتمناه نورسين.. ثم هبت ريح خفيفة كالنسيم من أمامهم وابتلعتهم واختفيا بداخلها.

وجدا نفسيهما في مكان كما تخيلته تمامًا، مكان هادئ جدًّا ضوؤه كلون البحر مائل إلى الزرقة الخافتة، كل شيء فيه هادئ إلا صوت تلك الأمواج التي ما أن سمعتها نورسين حتى هرولت ناحيتها مسرعة، والدعسوقة وراءها ثم وقفت فجأة وهي تحملق في شاب جالس يستمتع بهدوء البحر وصوت الأمواج العالي على عكس كل شيء حوله.

اقتربت منه ببطء وقد علا وجهها ابتسامةٌ خافتةٌ حاولت أن تواريها، ولكنها لم تفلح أدارت وجهها ونظرت للجالس وهي تبتسم:

(أنس!! كنت أعرف أنك تحمل قلبًا طيبًا سيجعلني أجدك في عالمي الخيالي هنا).

وقف عندما رآها وهو يتلفت لها: (نورسين كيف جئت إلى أحلامي؟!)

– (بل أنت من جاء لينقذني حمدًا لله أنني وجدتك).

– (إنه مجرد حلم يا نورسين، أنا أعلم ذلك، فأنا أمشي وأتحرك، انظري لساقي لدي ساقان قويتان، وأنت تتحدثين وا.. يا إلهي!! ما هذا الشيء خلفك).

نظر للدعسوقة وارتعد وهي تضحك ثم قالت: (حسنًا حسنًا، بشريٌّ آخر يخاف مني، لقد سئمت نفس ردة الفعل المعتادة، سأذهب وأجلس هناك عند تلك الشجرة، وعلى نورسين أن تشرح لك الآن) تأففت وهي تمشي بعيدًا عنهم وتقول بصوت يكاد يسمع: (عالم البشر يشعرونني أنني مرعبة كلما شاهدني أحدهم لأول مرة كم سئمت تصرفاتهم هذه).

ضحكت نورسين لحديثها وجلست بجوار أنس وبدأت تحكي له ما حدث، لكن أنسًا وكأن على رأسه الطير من الصدمة، سكت قليلًا ثم قال: (إنه مجرد حلم أعلم ذلك..هيا أفق يا أنس، أفق).

أخذ يدور حول نفسه تارة وحول المكان تارة أخرى، وهو يتفحصه يحاول إفاقة نفسه، ونورسين واقفة تشاهد ما يفعله وتضحك إلى أن توقف، ثم نظر إليها قائلًا: (حسنًا، يبدو أنني عالق معك هنا، وأنا واثق أنه مجرد حلم). فإليكن إذن بضع لحظات نختلس فيها من الزمن حياة كما تمنيناها سيكون أجمل حلم على ما أعتقد).

سعدت لحديثه وجلسا سويًّا يتسامران، وبدأت تسرد عليه كل ما حدث معها، وما أن انتهت حتى شعر أنس أنه يختفي، وهي تنظر إليه بخوف ورعب، كان يحاول أن يتماسك وهو يقول: (ما الذي يحدث لي).

اقتربت الدعسوقة من بعيد، وهي تتحدث بلا مبالاة: (أنت تصحو من النوم يا فتي، هيا عد لحياتك وسننتظرك حتى تنام مجددًا).

ثم اختفى أنس تمامًا، التفتت نورسين للدعسوقة في غرابة: (هل هذا ما يحدث؟! سيذهب وننتظره حين يعود).

– (نعم، ألم تفعلي هذا مع جدتك).

– (نعم، فهمت الآن، لن يكون معنا طيلة الوقت، عليه أن يعود كلما سنحت له الفرصة أقصد بتلك الفرصة هي النوم طبعًا).

– (أصبت الحديث يا فتاتي، والآن هيا بنا نستكشف باقي عالمك الذي تخيلتيه لربما نجد أحدًا آخر).

أفاق أنس من نومه وهو يتنهد ويقول لنفسه: (عجبًا، يا له من حلم غريب!)

ثم جذب كرسيه ليقوم من نومه ويفعل ما يفعله كل صباح عندما يفيق من النوم، فمدة المصيف أوشكت على الانتهاء تبقى لهم عشرة أيام فقط ويرحلون، تمشى بكرسيه إلى المرأة وهو ينظر لنفسه ويتذكر حلمه، كم كان رائعًا جدًّا وهو يملك قدمين تمنى أن يكون هذا الحلم حقيقة وليس مجرد حلم عليه أن يفيق منه.

انتهى من إعداد نفسه وذهب إلى حجرة والدته ليقبلها ويذهب إلى العوم، فالبحر يعتبره حياة بالنسبة له، ما أن وصل إلى الشاطئ حتى

وجدت نورسين.. كانت تبدو غريبة على غير ما اعتادها، نعم لم يعتدها بتلك الملابس الخليعة لقد تغير شكلها تماما، اقترب منها بكرسيه المتحرك وهو يتفحصها: (مرحبًا نورسين تبدين مختلفة اليوم، ما الذي حلَّ بك؟! يا إلهي! لا أصدق ما ترتدينه).

اعتدلت من مجلسها وهي تنظر إليه بغرابة: (ترى من أنت، هل تقابلنا من قبل؟!).

– (لا أصدق هل أخطأت العنوان أنت تتحدثين! لديك صوت! لا تسأليني من أكون بل من تكونين أنت؟).

– (أنا لا أعرفك هيا اغرب من وجهي).

– (مزحة جيدة يا فتاة، ما الذي حل بك؟! هل والدك هنا وتخافين أن يراني معك؟ سأنصرف ولكن أخبريني حقًّا كيف عاد لك صوتك؟!).

كانت تبادله نظرات حادة وهو يسألها ثم أشاحت بوجهها منه وابتعدت عن المكان، وكأن هناك شبحًا فيه دون حتى أن تراعي مشاعره وتجيبه عن أسئلته، شعر هو بغرابة فعلتها ثم جر كرسيه بعيدًا عن المكان وهو لا يفهم ما الذي أصابها أو هل تحقق حلمه؟! لقد تركها تتحدث في الأحلام، والآن يحدث ما رآه.

مر يومه بسلام كعادته، إلا من ذلك الموقف الغريب الذي شاهدها فيه وهي تهرب منه وتتوارى كأنها لا تعرفه، إلى أن جاء موعد النوم استلقى على سريره وغطَّ في نوم عميق، ثم هاهي الأحلام مجددًا لقد وجد نفسه في نفس تلك البقعة الغريبة التي شاهدها البارحة في منامه.

هرولت نورسين تجاهه وهي سعيدة: (أنس.. لقد عدت.. الحمد لله).

نظر لها في غرابة: (نورسين! ماذا تفعلين في أحلامي مجددًا؟ هل عقلي الباطن يفكر فيك إلى هذه الدرجة؟!).

كانت في حيرة لا تعرف كيف تجعله يصدقها: (ليس عقلك الباطن، نعم إنه حلم ولكنك في عالم حقيقي هنا).

ابتعد عنها ووقف أمام البحر ينظر إلى أمواجه: (أرجوكِ غادري حلمي كما غادرت حياتك، لا أريد رؤيتك حتى في منامي، لم أعهد أن أرى أنسانًا خبيثًا بوجهين مثلك).

- (ماذا تقصد يا أنس.؟! لا افهمك!!).

-(لقد كنت البارحة على الشاطئ بصحبة ذلك الفتى الأخرق مهند، تتمايلين وترقصين معه كفتاة لعوب لا يشرفني معرفته، حتى إنك تملصت في الحديث معي وهربتي تاركة إياي كالأخرق، وأنا أتحدث إليك).

قضبت نورسين عن حاجبيها في غرابة لحديثه هذا ثم اتجهت لتقف أمامه: (ما الذي تقصده؟! أنا ما زلت في عالم الواقع!! ما الذي تعنيه لا أفهم؟).

اقتربت منهم الدعسوقة بعد أن استمعت لحديثهم: (يا إلهي! نورسين إنها جايا لقد بدأت في الاستيلاء عليك كما استولت على والدك، إنك تتحولين إلى ما تريده).

شهقت نورسين: (وما الذي أتحول إليه؟ هل سأذهب إلى الأبد مثلما ذهب أبي؟!).

– (لا أعلم ولكن علينا أن نتحرك بسرعة، فالوقت يداهمنا، ربما إن نجحنا سيعود كل شيء إلى سابق عهده معك، سأتركك الآن عليك أن تقنعي أنسًا، هيا أسرعي).

وقفت نورسين حائرة وهي لا تعرف ما الذي عليها فعله، وأنس استمع لحديث الدعسوقة دون أن يبالي، ثم ابتسم بسخرية وقال: (وما الذي عليك إقناعي به؟ حسنًا، أنا لا أهتم فقد سمعت حديثًا عجبًا منك البارحة في المنام ورأيت نقيضه اليوم).

انفعلت وهي تحدثه: (نعم، وهذا يثبت صدق ما أخبرتك به، إنها الحقيقة، أقسم لك أنها تستولي على كل ما أملكه، إنها تدمرني مثلما دمرت والدي).

– (وما الذي يثبت لي صدق كلامك؟ هل هذا الحلم الغريب الذي لا أصدقه حتى؟).

انزوت في ركن على الشاطئ وهي تبكي وتقول: (أخبرتك أنها جايا، لست أنا، أقسم لك).

كان لا يريد أن يصدقها ولكنه حين رأى دموعها جلس بجوارها يهدجها ثم قال: (حقًّا، نورسين بداخلي مشوش، لا أعرف هل أريدك هنا في أحلامي أم لا؟! لكن اهدئي، أنا حقًّا أحاول أن أصدقك، اعطني أي شيء أجده بعالم الواقع حتى أصدق أن ما نحن فيه حقيقة؟).

مسحت دموعها وهدأت حين رأته يتجاوب معها: (استمع لي، يمكنك أن تدخل غرفتي بالفندق، وترى الكتاب وعقد اللؤلؤ، إنني أخبئهم في خزانة الملابس بالأسفل، هناك صندوق نحاسي صغير ستجدهم به، أرجوك عليك أن تتأكد بنفسك لتصدقني).

فنظر إليها وهو يشعر بالحيرة من أمره، كان بداخله مقتنعًا أن ما يحدث مجرد حلم، وأن عليه فقط أن يجاريها فيه، ثم قال: (حسنًا دعينا من أمور جايا هذه، وهلمي بنا نستكشف المكان).

ابتسمت له وقد شعرت بالطمأنينة: (لقد فعلناها أنا والدعسوقة عندما غادرتنا البارحة، تمشينا قليلًا في الناحية الشرقية ولم نجد شيئًا).

قرب يده منها، وهو يمدها تجاهها لتمسك به، وتشابكا بالأيدي وقد خرجت منها نظرة خجل، وهو يقول: (هيا بنا فلنرى ما الذي يوجد بالناحية الغربية، إنه عالم رائع، ونحن طبيعيان الآن، فلنستمتع بتلك اللحظات النادرة التي لا نحظى بها في عالمنا الكئيب، ثم لا أريد أن أرى دموعك ثانية أيتها الفتاة، حتى وإن كانت في أحلامي).

كانا يتجولان في المكان، المزيد من النباتات الزهرية الجميلة ومياه ممتدة بلا نهاية.. إلى أن اختفى مجددًا.

انتهى حلم أنس، وقد أفاق مجددًا، وهو يفكر فيما حدث في ذلك الحلم، ترى..هل يذهب أم لا؟! كان يقول لنفسه أجننت يا أنس تصدق مجرد حلم، لكن الفضول لديه لم يكن ليتركه هكذا أبدًا.

كان يتعمد الجلوس في الأماكن الموجودة بها نورسين، وهو يتفحص نظراتها التي تتلاشاه وكأنها خائفة منه، تلك النظرات كانت كفيلة أن تجعله يشك فيها، ثم في لحظة وهي تسبح مع مهند، جرَّ كرسيه وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، ومر بجوار منشفتها، والتي كانت تعلق مفتاح غرفتها بالقرب منها، مد يده ليستعيره لمعرفة الحقيقة بسرعة، وهرول بالكرسي إلى داخل الفندق، كان يرتعد، إنها المرة الأولى التي يفعل فيها شيئًا كهذا، كان يخبر نفسه أن عقله قد حدث فيه خلل ما،

كيف ينصاع وراء حلم، ولكنه الفضول ما أن وصل إلى الدور القابع فيه غرفتها عن طريق المصعد حتى تلفت جيدًا قبل أن يجر كرسيه ناحيتها ويفتحها سريعًا ويدخل.

لكن باغته عامل النظافة قادمًا من بعيد، فاقترب منه العامل بكل لطف: (هل تريد أي مساعدة يا سيدي؟).

أجابه أنس وهو يحاول أن يتماسك نفسه: (لا أنا بخير سأدخل غرفتي الآن).

- (هل هذه غرفتك؟!)

أشار إلى غرفة نورسين فتردد أنس قليلًا ثم قال: (نعم نعم، إنها هي).

أمسك العامل المفتاح من يده: (حسنًا دعني أساعدك).

ثم فتح له الباب وتركه وغادر، دخل أنس بسرعة إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام، ثم ابتلع ريقه وأخذ العرق يتصبب منه وهو يتجه ناحية الخزانة، وعيناه تجاه كل الأماكن خوفًا من دخول أي أحد، وما أن فتح الخزانة حتى قلب أسفلها وأبعد الملابس فوجد الصندوق في نفس المكان الذي أخبرته عنه، ارتعد حين وجده، ثم فتحه بسرعة ونظر داخله كان كما أخبرته بالحلم، ألقى الصندوق من يديه وقد سرت قشعريرة في جسده من الخوف، لقد رأى بداخله كما أخبرته بالضبط! كتاب غريب الأطوار وعقد من اللؤلؤ كما وصفته تمامًا!!!

أمسك أنس بسرعة بهما وأعاد كل شيء إلى مكانه ثم أغلق الخزانة وخرج مسرعًا وهو يتنفس بصعوبة، ولا يتوقف عن ابتلاع ريقه، ثم عاد إلى المسبح ووجد نورسين ما زالت به مع مهند تفحصها

جيدًا ليتأكد أنها لا تنظر تجاهه، ومن ثم أعاد المفاتيح إلى مكانها وأسرع بعيدًا عنها.

كاد أن يغشى عليه مما حدث، وأخذ يحدث نفسه: (هل كان الحلم حقيقة؟! هل هناك عالم آخر بداخل الأحلام يمكنه أن يحتجزنا إلى الأبد.. يا إلهي كيف لي أن أساعد نورسين؟ أشعر أن عقلي سيطير مني).

أسرع إلى غرفته وارتمى على سريره وهو يحاول النوم للقائها مجددًا، ولكن النوم أبى أن يأتيه فعقله لم ينفك يترك التفكير فيما حدث معه، بقي على هذه الحالة وقتًا طويلًا حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل وهو يقنع نفسه بالنعاس إلى أن نام أخيرًا.

نفس المكان الذي تركها فيه وجدها هي والدعسوقة بانتظاره كالعادة لكن الوضع هذه المرة بدا مألوفًا له بل ربما بدأ يعتاد عليه، حتى أنه أصبح يعلم أين عليه أن يجد نورسين فتوجه إليها مباشرة وهو يبتسم: (في البداية دعيني أعتذر منك لقد أسأت الظن بك).

نظرت له في تعجب: (هل استطعت أن تفتح الخزانة؟).

– (نعم لقد كنت على حق.. ولكن الآن ما الذي علينا فعله كيف لي أن أساعدك أنا حتى لا أعرف؟).

سرحت بخاطرها بعيدًا لوهلة ثم أعادت النظر إليه: (أتدري يا أنس، كم أنا سعيدة بك الآن معي) ثم طأطأت رأسها وأعادت النظر إليه مرة أخرى، وقد أصبح على وجنتيها حمرة الخجل وهي تحدثه (أصبحت انتظر لقاءك).

هدجها بنظرات خجولة وهو ينظر إليها في صمت رغم أنه كان يريد أن يقول الكثير من الكلمات، كان يريد أن يحتويها ولكنه لا يعلم

ما الذي أوقف لسانه عن مجاراتها في الحديث، ربما لأنه ولأول مرة يشعر بالعجز، فهو لا يستطيع إنقاذها حتى، فكيف السبيل إلى إخبارها بأي شيء آخر.

لحظة صمت وعجز من كلاهما حتى كسر أنس حاجز الصمت بينهما قائلًا: (علينا أن نفكر قليلًا لن يجدي الصمت نفعًا أخبريني كيف وصلت إلى؟).

– (لا أعلم، فقط سمعت صوت أمواج البحر، واتجهت إليها فوجدتك أمامها).

– (لا أعتقد أنها صدفة أن تجديني أمام البحر..! دعينا نكمل البحث ونستكشف المكان قد نجد أي شيء آخر يساعدنا على معرفة طريق النجاة).

أومأت برأسها موافقة له ومضيا يتجولان..كان شاطئ البحر طويلًا، بدا لهم أنه لا نهاية له.. قبل أن يكملا حديثهما أفاق أنس مجددًا، ولكن هذه المرة كان مغتاظًا جدًّا، لم يكن يريد أن يصحو، أخذ يضرب وسادته حين أفاق لم يكن يريد أن يتركها، فإذ بها أمه فوق رأسه تريده أن تطمئن عليه، قام في غرابة من فعلتها.

– (منذ متى تأتي إلى غرفتي لتجعليني أصحو من نومي يا أمي؟).

– (عزيزي جئت أطمئن عليك، فأنا أراقبك كل يوم تصحو من تلقاء نفسك وتذهب إلى الشاطئ.. أما اليوم فقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ظهرًا وأنت ما زالت في غرفتك، من حقي أن أطمئن عليك).

قبلها بين عينيها واحتضنها: (أنا بخير حال يا أمي، لا تقلقي، فقط أريد النوم).

– (أصبحت تنام كثيرًا يا عزيزي هل بك مكروه ما؟ أو ربما هناك ما يؤلمك؟).

– (لا.. لا.. أقسم لك أنني بخير حال، أنا فقط أريد بعض الهدوء والراحة).

– (حسنًا يا عزيزي إن احتجت شيئًا فقط نادِنِي).

وغادرت غرفته وهو جالس على سريره يتأفف.

حاول أن يغمض عينيه مجددًا ولكن وقت نومه قد مضى لا سبيل للعودة إلا أن يشعر بالإرهاق كعادته وينام مجددًا، لكنه لم يستسلم وأسرع بالجلوس على كرسيه وهو يجري به إلى أقرب صيدلية بداخل الفندق، فسأل الطبيب على حبوب منومة ولكن الطبيب كعادة أي طبيب قال له: (لا أستطيع إعطاء أي وصفات لك هكذا، دون أن يكون قد كتبها لك مختص).

– (أرجوك أنا احتاجه بشدة).

– (ممم....هل تشعر بأرق شديد؟).

– (نعم، نعم أنا لا أنام جيدًا).

– (حسنًا سأعطيه لك ولكن عليك أن تأكل جيدًا، وأن تريح أعصابك، فالجسد لا يحتاج إلى أن تجبره كي ينام، يمكنه الانصياع لأوامرك دون هذه الحبوب المنومة، فقط أرح عقلك واسترخِ).

– (نعم أشكرك أيها الطبيب هاتها).

أخذها أنس منه وقد شعر بالسعادة، جر كرسيه إلى غرفته وشرب كوبًا من العصير، وابتلع حبة من المنوم وألقى بجسده على السرير كي ينام بسرعة، وقد كان ما أراده.

كانت نورسين جالسة على الشط ترسم بأصبعها على رماله حين جاء أنس مهرولًا ومسرعًا إليها، فرغت فاها حين شاهدته: (أنس، لقد اختفيت فجأة.. وجئت بسرعة غريبة؟!).

– (يمكنك أن تقولي: إنني لم أقوى على الابتعاد عنك).

ابتسمت وهي تنظر له في تعجب فشعرت أنه فعل شيئًا.

– (هل شربت حبوبًا منومة؟!).

– (لا يهم الآن، علينا الإسراع في إنقاذك).

– (لا يمكنك أن تؤذي نفسك يا أنس من أجلي، أرجوك عد وأكمل حياتك بطريقة طبيعية أخشى عليك المرض).

– (لا تخافي أنا بصحة جيدة، هيا الآن لا تضيعي الوقت في ترهات فلنكمل سيرنا).

كانا على مسيرة خطوات من قصر كبير، ظهر فجأة وكأنه خرج من الرمال قصر كبير مهيب الطلَّة، تعلوه قباب برتقالية، وكأنها تعكس أضواء الكواكب الأخرى فيرتد الضوء فوق الرمال فيخرج أنوارًا ملونة تحوم حول ذلك القصر بطريقة بديعة لا يمكن وصفها، ومن حوله أشجار ونخيل وعصافير تغرد بأصوات عذبة...

اقتربت الدعسوقة وهي تحملق في القصر الكبير: (عجبًا يا نورسين، لم أشاهد في حياتي كلها التي صاحبت فيها آدميين.. مثل هذا الجمال، يبدو أن قلوبكم أنقى قلوبًا شاهدتها في حياتي حتى يكون كوكبكم الخيالي بهذه الروعة).

نظرت نورسين إلى أنس وتشجع هو ليتقدم المسيرة فوجدا شابًّا واقفًا يطعم حيوانات صغيرة جميلة من حوله، قالت نورسين في صوت مليء بالسعادة: (يوسف..!).

نظر أنس إلى نورسين بغرابة: (من يكون؟).

ابتسم يوسف، وقبل أن تجيب نورسين قال الفتى الآخر: (يوسف صديقها، أنا في الخامسة عشرة من العمر الآن لن تعرفني فأنا في عالم الواقع أعاني من التوحد.. أما هنا في عالم الأحلام فأنا ملك، وأملك هذا القصر كما تري).

أجابه أنس وقد رفع حاجبيه في تعجب: (لا أفهم نتيجة بحثنا المضني يأتي لنا بصديق آخر لك يا نورسين!!).

اقتربت هي من يوسف وقد شعرت بسعادة غامرة وهي تنظر إليه، ولا تصدق عينيها: (يا لها الصدف الجميلة، كم تمنيت أن أراك تتحدث جملة

واحدة من ثلاث كلمات حتى..الآن أنت تتحدث بطلاقة وملك أيضًا.. ليت الواقع كالأحلام.. ولكن كيف عرفت أننا في أرض الأحلام يا يوسف؟!).

اقترب منها يوسف، وهو يمسك في يده صغيرًا لأرنب أبيض يطعمه بعض من النباتات التي أقتطفها من أجله ثم قال: (شعرت بأن هناك خطب ما بك، لكني لم أعرفه أنا أشعر أن قلبك يتألم نورسين، والحقيقة أنني أعيش في عالم الأحلام هنا فالواقع لا يناسبني ولدي كوكب رائع ربما تأتين في يوم لمشاهدته، حسنًا حين شعرت بأن هناك خطب ما بك أغمضت عينيَّ وطلب أن أذهب للمكان الذي

فيه أنت، فأنا أتحكم جيدًا في هذا العالم وها أنا ذا، أخبريني ما الذي ألم بك؟!).

نظرت له نورسين ثم إلى أنس وهي تفكر ثم قالت: (هناك رابط ما جمعني بكما أنتما الاثنان، ألا ترى يا أنس لما أنت الوحيد الذي شاهدتك أولًا هنا والآن يوسف يخبرني أنه شعر بكوني في مأزق ما وجاء لمساعدتي).

تنهَّد أنس: (نعم أفهم، ولكني لا أعرف ما الرابط بيننا جميعًا؟!).

اقتربت الدعسوقة منهم: (أنتم في عالم الواقع منبوذون، بكم بعض الإعاقات التي لا يد لكم فيها فيحاربكم أصحاب القلوب الغليظة رغم أنكم أنقى من في هذا الكون.. المعضلة حلّت يا شباب لقد اختارتكم أرض الأحلام لكي تكونوا قادتها، فقلوبكم لا يوجد مثيل لها، وربما استطعتم الخلاص من تلك الشريرة جايا.. أتمنى ذلك).

* * *

الفصل السادس

(الممالك الست)

جلس أنس بجوار نورسين المتغيره، والتي عرف حقيقتها يراقبها عن كثب ويراقب عائلتها حتى يجد أي شيء يجعله يساعد نورسين حبيسة عالم الخيال، اقترب من أخيها نادر والذي كان جالسًا بعيدًا من عائلته ينظر بغيظ لهم فجرّ كرسيه وجلس بجواره.. فأخرج نادر سيجارة وحاول إعطاءها لأنس الذي أبعد رأسه مشمئزًّا وقال: (الصحة لا تشترى يا أخي أعطاك الله هبة لا مثيل لها كيف لك أن تهدرها).

لم يكترث نادر لحديثه وأشعلها وهو ينظر في غيظ لأخيه من بعيد، كان أنس لا ينفك ينظر له تارة ولعائلة تارة إلى أن قال له: (حسنًا، أراك مغتاظًا هل هناك خطب ما؟ أعني إن كنت تريد أن تحكي لي فاعتبرني أخاك).

ضحك نادر بسخرية وعيناه لا ترتفعان عن أخيه وفيروز:

– (أنت ما زلت صغيرًا أيها الفتى أراك في عمر أختي الصغرى، هل تريدني أن أحكي لك.. حسنًا فليكن فأنا لا أهتم، انظر لتلك الفتاة الجميلة هناك).

– (من تقصد فهناك فتاتان).

– (أعني الجالسة بجوار الشاب الطويل، إنها جميلة، كان من المفترض أن تكون لي أنا، ولكنه أبي اختارها لأخي كعادته).

– (حسنًا، تحدث معه ربما يفهمك أو ربما الفتاة تختارك إن تحدثت إليها).

فزَّ نادر من مكانه وبرقت عيناه: (أتدري لم يكن عقلك صغيرًا كما تخيلت، رائع يا فتي فكرة جميلة، نعم سأتحدث إليها وسأنال قلبها).

– (وماذا ستفعل في أخيك ووالدك؟).

– (لا يهم، المهم الفتاة).

– (يا إلهي! ستعصي أمر والدك..!!).

– (لا يهم، وما الضير في ذلك؟).

– (أعتقد أننا سمعنا كثيرًا عن المثل القائل: الجزاء من جنس العمل، سيعاقبك الله على فعلتك وستخسر أخيك ووالدك و..).

تأفف نادر وقام من مجلسه وهو يقول: (أفٍّ لك يا فتى ظننتك كبيرًا لا أريد سماع أي شيء من هذه الترهات التي لا تجدي نفعًا).

ثم تركه وذهب ليجلس بجوار فيروز وهو يهمس في أذنها فتضحك وأنس يراقب من بعيد.

أما نورسين فكانت جالسة تتفحص خاتمًا ماسيًّا كبيرًا جاء به مهند كهدية لها وهي لا ترى حتى أنس الذي كان يراقبها من بعد عن كثب.

في عالم الخيال تحرك أنس، ويوسف، ونورسين، ومعهم الدعسوقة؛ لوضع خطة لمسار طريقهم ما أن بدأت الدعسوقة في رسم

خريطة كبيرة لهم فوق الرمال حتى استعموا لصوت غريب ينادي على نورسين يخرج من داخل الماء، نظر الكل في شغف وربما رهبة لهذا الشيء حتى وقف على قدميه، إنه شاب صغير في الرابعة عشر ربما أخذ ينفض الماء عن جسده، وكأنه ينفض الغبار فاختفى كل البلل الذي كان فيه وقف يضحك سعيدًا ثم هرول ناحية الفتاة تعجبت حين رأته وهي تقول في سعادة: (علي! يا إلهي! إنه صديقي من المركز، علي يا إلهي! لا أصدق! علي! لقد اختفت تلك الملامح من وجهك).

قال أنس في غيظ: (ومن يكون علي أيضًا؟).

أجابته نورسين وهي تسلم على الفتى الجديد وقد غمرتها السعادة: (من المفترض في عالم الواقع أنه من متلازمة داون، لهم ملامح تشبه الماغوليين في بلاد منغوليا، لكن ما أطيب قلوبهم التي تفتقر إليها البشرية، بل يفتقر عالم الواقع كله إلى أن يكونوا ولو جزءًا بسيطًا من هذه القلوب النقية).

رحبت به وهي تسأله: (أين كنت؟ لقد بحثنا في كل الكوكب لم نجد شيئًا؟).

– (الحقيقة! لقد كنت أغوص في أعماق البحار أحببت الأسماك الملونة وتلك الأخطبوطات الغريبة كنت ألعب معهم، ولمحتك من أسفل الماء فخرجت إليك).

سلموا جميعًا عليه، ورحبوا به أما الدعسوقة فقد أكملت حديثها بعد أن سلمت عليه مثلهم كي تتعجلهم في إنجاز المهمة: (الآن يا شباب فلننجز هذه المهمة.. ليس لدينا متسع من الوقت، فقد بدأ الوقت ينفذ).

قطع علي حديثها وهو يقول: (حسنًا، حين شاهدت نورسين أخبرتني بعض الشعب المرجانية بالقصة كلها، وأخبرتني أيضًا أن جايا سيطرت على جزء كبير من عالم الخيال، وبدأت في امتصاص الألوان من الكواكب).

تنهدت الدعسوقة، وجلست على جنب في حزن: (إذن لقد انتهى كل شيء).

قالت نورسين في خوف: (كيف انتهى ونحن لم نبدأ مهمتنا بعد؟ وما الذي يعنيه امتصاص الألوان من الكواكب؟!).

أجابت الدعسوقة والحزن قد بدا واضحًا جليًّا عليها: (معناه أن يتحول عالم الخيال إلى كوكب رمادي باهت، يشبه حياتكم الواقعية الكئيبة؛ حيث لن تكون هناك سعادة إلى الأبد).

قال أنس: (فهمت من حديثك السابق أن الخيال هنا ممتد من الواقع من خيالاتنا نحن البشر، هل يعني حين ينتهي الخيال هنا أنه سيؤثر على عالم الواقع).

– (نعم ستنتهي الاختراعات، سينتهي كتابة القصص الخيالية، ستنتهي السعادة كلها، سيتحول الواقع إلى أناس تشبه كاظمًا وفيروز وغيرهم، الكل سيصبح مثلهم، سيملأ الشر المكان، وسيتدمر عالمك كله).

قالت نورسين: (إذن إن استطعنا أن ننقذ عالم الخيال فإننا ننقذ الواقع أيضًا!!).

أجابت الدعسوقة: (إنها الحقيقة، لقد سيطرت جايا في السابق على بعض الكواكب لكن الآن يبدو أنها توغلت كثيرًا).

قضبت نورسين عن حاجبيها وهي تحاور الدعسوقة: (لم تخبريني هذا من قبل!! أيعني هذا أننا انتهينا حقًّا).

اقترب يوسف من الدعسوقة، ومد يده: (هيا أيتها الحشرة العجوز، كفاك نحيبًا، علينا أن ننهي هذه المهمة حتى لو أن نموت في سبيل إنقاذ عالم الخيال).

ابتسمت له ومدت يدها بدورها هي الأخرى وهو يكمل حديثه: (لن نخضع لها، لقد تجمعنا في مهمة، وعلينا أن ننجزها حتى النهاية).

ربَّت أنس على كتف يوسف: (لم أعلم أنك شجاع هكذا أيها الشاب، وأنا أضم صوتي لصوتك، كنت قد وعدتك بالسابق أنني لن أخذلك، ولن ينتهي هذا الأمر إلا بعودتك لعالم الواقع يا نورسين، وها أنا أمد يدي مثل يوسف لكم جميعًا، إنني لن أبرح مكاني إلا بالحرية لعالم الخيال من المدعوة جايا).

ثم مدَّ الجميع يده لها وهم يرددون: (الحرية لعالم الخيال أو الموت من أجله).

قامت الدعسوقة من مجلسها، وكلها قوة وثقة وهي تبتسم: (هذا ما كنت أنتظره منكم أيها الصغار أحسنتم جميعًا).

وقفت وأكملت ما كانت تقوم بعمله في السابق؛ وهو الرسم على الرمال، وهي تشير إلى رسمتها والتي شرحت معناها لهم، فقد كانت تعني عالم الخيال كله، كان عبارة عن شجرة كبيرة؛ كل عالم عبارة عن ورقة شجر فيها، وليس كما يشاهدونه كألوان أو كواكب أي أنه عندما يتم رسم خريطة كبيرة له يكون بمثابة هذا الشكل شجرة لها أفرع وأوراق وجذور ممتدة لا نهاية لها.

أشارت الدعسوقة إلى جذور الشجرة جيدًا، ثم قالت: (هنا توجد جايا.. إنه مكانها وأرضها هنا تتحكم في عالم الخيال كله).

اقترب يوسف وهو يتفحصها بعينه ثم أشار إلى الجذور: (ولما على جايا أن تتحكم في عالم الخيال بهذه الطريقة المشينة).

أجابته الدعسوقة: (من ضعف بني آدم يا صغيري، إنه خطاء جهول، دائمًا ما يستمع إلى جايا وأمثالها، دائما ما يبحث عن الطريق السهل).

قال أنس: (هل تعنين أن كل بني البشر ممن يحملون قلوبًا طيبة اتبعوا جايا ؟؟).

– (نعم إلا قليل.. إنها تهيئ الشر فتجعله جمالًا لا يقاوم، تجعله حياة أبدية، تجعله ملكًا لا يفنى.. هذه هي جايا فينساق الناس وراءها، ثم يفيقون بعد فوات الأوان).

قالتها الدعسوقة، وقد ظهر الحزن في عينيها، ثم سألتها نورسين وهي تشير إلى الشجرة: (إذن، في أي مكان نحن فيها؟).

أمسكت الدعسوقة بعصاها من خلف ظهرها وأشارت إلى ورقة متطرفة في جذع جانبي للشجرة: (إننا هنا).

أكملت نورسين: (إذن، كيف نصل إلى الجذور فنقتلع تلك الخبيثة منها؟).

ابتسمت الدعسوقة: (كانت جدتك دائمًا ما تقول لي: نورسين حالمة وقوية أيتها الدعسوقة ستبهرك بقوتها يومًا ما، حديثك عن انتزاع جذورها حقيقة يا فتاة إنها المرة الأولى التي أسمعها وأتمنى حقًّا أن تكوني على حق وتستطيعين.. ولكن علينا أن نجتاز أرض الممالك الست).

قال أنس: (وماهي الممالك الست؟).

أمسكت الدعسوقة بالعصا وأشارت إلى ستة أفرع طويلة عن باق الأفرع بالشجرة ثم قالت: (هنا في كل مملكة عليك اجتياز اختبار لا يمكنك توقعه ولكن لابد لك من اجتيازها؛ المملكة الأولى أرض الظلال، لم أدخلها من قبل، ولكن يقال: إن عليك اجتياز ظلال لن تتخيل ما هي، الأرض الثانية مملكة الكائن، حقيقة لا أعلم ما الذي يعنيه الكائن هذا، أما المملكة الثالثة وهي أرض الغابة المظلمة، والرابعة هي مملكة أرض ساحرة الجنوب الشريرة، والمملكة الخامسة هي أرض الأوزاي، لا أدري أيضًا ما هي، فاسمها غريب، أما المملكة السادسة وهي الأخيرة قبل أن تصل إلى جايا وهي أقوى مملكة فيهم لا أعرف حتى ماهو اسمها، فلم يدخلها أحد أعني لم يصل أحد من قبل إلى هذه المرحلة من أجدادي ولا من أعرفهم حتى، ولا نعرف ما هي ولا ما هو اسمها).

ابتلعت نورسين ريقها وهي تنظر لرسم الدعسوقة وإلى الممالك الغريبة التي تشرحها وهي مرعوبة تدور، الأفكار في عقلها وتتساءل بينها وبين نفسها هل يمكنها هنا اجتياز ما لم يستطع أحد على اجتيازه من قبل؟ ثم قالت وقد قضبت عن حاجبيها: (وكيف لنا أن نصل إلى تلك الممالك).

أجابت الدعسوقة: (كل أرض الأحلام متصلة ببعضها، يمكننا من خلال عالمك المتواجدين فيه الآن الولوج إلى أرض الممالك الست؛ لأن عالمك أصبح ينتمي إلى عالم الأحلام الآن).

تنهدت نورسين ثم قالت: (استعنت بالله).

أعادت الدعسوقة عصاها خلف ظهرها، ومسحت الرسمة التي رسمتها على الرمال بيديها، وهي تشير إلى الرسمة بطريقة غريبة وكأنها تأمرها، ثم إن فعلت ذلك تحولت الرسمة إلى يدها وكأنها حفرت بداخلها ثم فتحتها أمامها وأشارت لهم أن يلمسوها فاقتربوا منها ولمسوها فتحولت الرسمة إلى أيديهم أيضًا وأصبح كلًّا منهم يملك الخريطة في كف يده.

أشارت الدعسوقة إلى منطقة بعيدة ثم قالت: (طريقنا يبدأ من هنا).

كانت المسافة طويلة جدًّا حتى تعبت نورسين من قبل اجتياز ربعها حتى، ثم قالت: (لما علينا السير كل هذه المسافة؟ ألسنا في أرض الخيال؟ لما لا أكتفي بتخيل أننا وصلنا فقط؟).

ضحكت الدعسوقة وقالت: (يمكنك تخيل عالم كامل، لكن لا يمكنك تسهيل الأمور أو إعادتها إلى نصابها).

أخرج يوسف حبلًا صغيرًا من جيبه وبدأ يفرد فيه بيديه ثم أداره في الهواء، فأصبح كـأنه مضيئًا بلون أزرق لامع، ثم قذف طرفه ناحية شجرة كبيرة فالتف الحبل حولها ثم اتجه يوسف ببصره إليهم وهو يمد يده قائلًا: (مغامرة رائعة كهذه لا تخلوا من بعض المرح هيا التفوا حول جسدي سآخذكم في رحلة طيران ستوصلنا سريعًا).

ضحكت نورسين وأسرعت لتتمسك به، وأنس متعجب يقترب في حذر أما الدعسوقة فكانت تهزأ من الحديث، وهي تقول بصوت غير مسموع: (يا إلهي! أتمني أن أخرج حية من هذه الرحلة العجيبة، فهؤلاء الأطفال فقدوا عقلهم تمامًا وأنا حمقاء لأنني اتبعهم).

مد يوسف يده في ثقة إلى الدعسوقة: (هيا أيتها الحشرة الجبانة، كفاك خوفًا إنها مجرد أرجوحة، أليس لديك أجنحة لتحملك إن كنت تخافين؟).

بادلته نظرة غاضبة بسخرية، ومدت يدها وتعلقت بهم مثل الباقين، فصرخ فرحًا وسط الأشجار وهو يتأرجح بهم، وهم يقتربون ناحية الشجرة الكبيرة عن طريق الحبل، وسرعان ما ارتطموا بها وسقطوا على الأرض، قام يوسف بسرعة وهو ينفض التراب عن ملابسة ويضحك: (إنها أكبر مرة قفزت فيها من مكان، ياللروعة، أنا أتشوق للمزيد).

كانت رأس الدعسوقة تؤلمها فقد ارتطمت بالشجرة وبدأت تشعر بالدوار: (يبدو أن هذا الصبي يريد القضاء علي).

أما نورسين وأنس فقد قاما وهما يضحكان مثل يوسف، ثم وقفا أمام الشجرة بعد أن اعتدلت الدعسوقة من مجلسها، وكذلك علي فالتفت لتنظر خلف الشجرة الكبيرة ثم قالت: (حسنًا، رائع جدًّا إنه أول باب لندخل أول مملكة).

قضبت نورسين عن حاجبيها وهي خائفة، وابتعدت عنهم بضع خطوات: (باب آخر أنا خائفة كفاني أبواب، ما أوقعني في هذا الهمِّ الكبير إلا الأبواب.. لا لن أدخل).

اقترب منها أنس وما أن اقترب وهو يحاول تشجيعها: (هيا نورسين تشجعي أنت قوية يمكننا فعلها و...).

لم يكمل كلمته حتى اختفى فابتعدت نورسين عن الشجرة والتحفت ظل أخرى وهي متقوقعة على نفسها في خوف، ويوسف ينظر لهما بغرابة: (أين ذهب أنس؟).

أجابت الدعسوقة وهي تذهب لتجلس بجوار نورسين: (عاد إلى عالم الواقع لقد فاق من الحلم).

أجاب يوسف وعلامات الغرابة تعتريه: (إذن، أنس يصحو ويذهب إلى عالمه.. أما أنا فأعود لعالمي دقائق معدودة ربما لا تلاحظوها وحياتي كلها هنا في دنيا الخيال، أعدكم بعد أن ننتهي من رحلتنا سآخذكم في رحلة إلى كوكبي الذي صنعته ستتعجبون كثيرًا فأنا لدي خيال خصب).

كان أنس قد ابتعد كثيرًا عن حيويته التي كان عليها أصبح أكثر انغلاقًا يأكل لينام فقط، كانت أمه تشعر بأن هناك خطبًا ما به، لكنه لم يجد الوقت ليحكي لها أو ربما لأنها لن تصدقه، أصبح أنس غريبًا طالما هو ما زال مستقيظًا، كل ما يفعله هو مراقبة نورسين وأهلها حتى حين يلتفت إليه أحد كان يدير وجهه كأنه لم يكن يلتفت إليهم.

حتى رأى شيئًا غريبًا كان نادر يتلفت يمينًا ويسارًا حتى يطمئن أن لا أحد يراه، فأسرع إلى مكان منعزل، شعر أنس أن هناك خطبًا ما فتتبعه ببطء حتى وجده يتلفت وهو يتحدث إلى شيء غير مرئي ابتعد قليلًا لكنه وقف في مكان يمكنه من استراق السمع إلى ما يحدث مع نادر، لكن نادرًا كان واقفًا يلهث وهو يتلفت إلى الشيء ويقول: (حسنًا أخبريني ما الذي علَي فعله حتى أنال كل شيء؟!).

استمع أنس لصوت يرد على حديثه ولكن دون أن يراه وقد أجابه الشيء قائلًا: (أنت ذكي يا فتى مثل والدك، ينقصني فقط الاستيلاء على بعض الأمور البسيطة من عائلتك وسأعطيك ما تتمنى).

– (حسنًا أخبريني، وأنا طوع أمرك).

- (جيد جدًّا، سآخذ صحة والدك أرى أنه عفي جدًّا، وحياة أخيك وأنت الذي ستأخذها بنفسك، ولا تخف سننجيك من السجن والعقاب، كما فعلت مع والدك من قبل).

تردد نادر قليلًا وهو خائف: (يا إلهي!! لم يكن هذا اتفاقنا.. تريدين مني قتل أخي وتدمير والدي، ولكن انتظري ما الذي تعنيه بأنك فعلتها مع والدي من قبل).

صوت قهقهات عالية: (ستعرف كل شيء في وقته يا فتى، أما الأم فهذا هو اتفاقنا رغم أنني أرى بوادر الموافقة في عينيك إلا أنني سأتركك تفكر لفترة ثم أعود لآخذ ما طلبته منك).

خر نادر في الأرض وهو يشعر أنه سيجنُّ لا يعرف ما الذي عليه فعله ثم أمسك بحفنة تراب بيده وألقى بها على الأرض بقوة تعبيرًا عن غضبه وانصرف.

تعجب أنس مما رآه وهرول سريعًا إلى غرفته لينال قسطًا طويلًا من النوم بعد أن ابتلع حبتين من المنوم بسرعة وهو يستعد لرحلته في أرض الأحلام.

ما أن وصل وهو يلهث حتى وجدهم جالسين في انتظاره قام يوسف بسرعة وهو يقول: (يعجبني سرعة هذا الفتى ونشاطه هيا الآن لننجز المهمة).

أوقفه أنس: (تريث قليلًا، هناك أمر قد حدث في أرض الواقع أنا لا أفهمه).

بدأ يسرد عليهم ما رآه من نادر ثم أمسكت به الدعسوقة وقالت: (إنها هي).

قالت نورسين: (أتقصدين جايا.. نعم، هي تحاول أن تفعل معه ما فعلته مع جدتي ووالدي).

أشارت لهم الدعسوقة: (الآن هيا قبل أن تنتهي مهلة نادر لأنه حتمًا سيوافق إنه يشبه والدك كثيرًا.. وساعتها ربما تكون قد استولت على عالم الخيال كله.. هيا أيها الفتيان فلنسرع).

أمسك الجميع بأيدي بعضهم البعض ودخلوا تباعًا من الباب.

كان المكان عبارة عن ظلال طويلة لكل شيء في عالم الخيال؛ ظلال للكواكب وللأقمار، ولكنها كعادة الظلال مظلمة جدًّا، تلفت الجميع إلى المكان ثم إلى بعضهم البعض في غرابة ثم فجأة ظهر شيء غريب لم يكن على بال أحد منهم.

إنها ظلال لهم بدأت ضخمة متوحشة، رغم أنها تحمل في طياتها ملامحهم، بدؤوا يبتعدون ويتقهقرون إلى الخلف في خوفٍ، ولكنها كانت تتقدم ناحيتهم كلما تقهقروا كلما تقدمت، كانت تبدو مخيفة، يا له من شيء عجيب! كيف يكون ظلك الذي يشبهك وهو مخيف بهذا الحد وكأنه يحاول النيل منك؟! كانوا يرتعدون حتى ارتطموا بالباب الذي دخلوا منه خلفهم ووقفوا وهم لا يعلمون ما الذي عليهم فعله.

فقال علي وهو ملتصق بالباب مثلهم في خوف: (وكيف لنا أن نحارب الظلال؟! كيف لنا أن نقضي عليها؟!).

نظر أنس للوحوش المقتربة منهم وإلى زملائه وهم يرتعدون ولا يعلمون ما الذي عليهم فعله، وهو يفكر ثم فتح الباب بسرعة وأغمض عينيه وقال وهو يصرخ: (يا عالم خيال نورسين الذي جئنا منه احتاج إلى ضوء بسرعة).

وكأنه قذف في يده ضوء وهاج شديد القوة لمصباح صغير دائري الشكل، فبدأت الظلال تبتعد، فأمسك بالكرة والتي كانت زجاجية، وقذفها بقوة أمام الظلال وعلي الأرض فارتطمت بالأرض وتكسرت إلى قطع زجاجية صغيرة ولكن بعد أن انبثق الضوء منها وكأنه بحر لجي أغرقت أمواجه المكان كله، صرخت الظلال وحاولت أن تبتعد، أن تجري حتى، لكن الضوء طالها وقضى عليها تمامًا.

فأصبح المكان خاليًا تمامًا من كل شيء وكسى الضوء بدلًا من الظلال وكأن الشمس قد أشرقت لأول مرة هنا، ضحك الجميع وقاموا باحتضان أنس وهم يصرخون من السعادة.

قالت الدعسوقة: (أحسنت التفكير يا فتى).

ابتسمت نورسين لأنس في خجل وهي تقول له: (نعم لقد أحسنت يا أنس، وأحسن عالمي الخيالي اختيارك لتلك المهمة).

بادلها نظرة سعادة وفخر وهو يقول: (حقًّا أنا سعيد أنه واتتني فكرة الضوء هذه، حقًّا كانت تحتاج إلى تفكير بسيط، فالضوء عكس الظلال. ولقد لاحظت أن أرض الأحلام مليئة بالأضواء على عكس هذا المكان الغريب رغم أني لم أكن واثقًا من نجاح الفكرة ولكن كان علَي المحاولة).

بعد أن أضاء المكان بدأت تظهر على الأرض قطعة كان لها لمعان غريب فأمسكتها نورسين وهي تتلفت لها في غرابة وقالت: (ما هذا الشيء الذي ظهر؟ يبدو كأنه قطعة مكسورة من شكل ما!!).

اقترب الجميع منها، وهم يتفلتون إلى الشيء وينظرون إليه في محاولة لمعرفة ما هذا، فقالت الدعسوقة: (حسنًا، ربما علينا الاحتفاظ بهذا الشيء ولنكمل مسيرتنا).

ابتسم الجميع وتنفست نورسين الصعداء وهي تقول: (حسنًا الآن علينا اجتياز الباب الثاني والذي يبدو أنه أمامنا مباشرة).

اقتربوا من شجرة ظهر أمامها باب، والتي كان بابها مختلفًا عن الآخر، فقد كان لحاء شجرة كبيرة ملقى على جانب بزاوية غريبة كيف لباب أن يكون غير مستوٍ بل وبشكل عشوائي هكذا، لكنهم تشجعوا ودخلوا إليه جميعًا وأغلقوا الباب خلفهم بعد أن أصبحوا في الجانب الآخر وهم ينتظرون أن يروا ما الذي عليهم مشاهدته الآن، إنها مملكة الكائن، ولكن كيف يبدو هذا الكائن؟!

لا شيء حتى الآن.. وقفوا لبضع دقائق لكن لا شيء فأشارت عليهم الدعسوقة أن يتشجعوا ويدخلوا إلى المكان ويبحثوا عن هذا الكائن، فضحك يوسف وقال بسخرية: (حسنًا، نبحث عن شيء خيالي في مدينة خيالية.. يا له من شيء رائع).

استمر بحثهم مدة، ولكن لم يظهر شيء حتى وقفوا وقد يئسوا، وهم يلهثون من الجري هنا وهناك بحثًا عن هذا الكائن حتى أحست نورسين بشيء غريب وكأنه يدغدها من الخلف عند أسفل قدمها، فتلفتت ووجدت قلبًا ملقًى على الأرض، نظروا إليه وهم يتفحصونه فبدأ القلب يهتز بقوة وتخرج منه شرايين وأوعية دموية، وبدأت تخرج من الأوعية قلوب صغيرة فتكبر ببطء حتى أصبحت كلها في حجم واحد، ثم انفلتت عن القلب الأساسي وبدت وكأن هناك من يقذفها تجاههم، فالتصق كل قلب بواحد منهم وهم يحاولون أن يبعدوها في خوف، ولكنها لا تتحرك بل متشبثة بهم بقوة، فبدأت تكبر وتتضخم حتى ابتلعتهم، ودخل كل واحد منهم داخل القلب الذي ابتلعه وحده، وكأنه سيواجه أقوي مخاوفه الآن.

فوجدت نورسين نفسها في مكان صحراوي والشمس الحارقة فوق رأسها، وهي تتلفت وتنظر في خوف، فوجدت جدتها وكأنها واقفة في السماء ثم هبطت إلى الأرض، ووقفت بجوارها وهي تبتسم فنظرت لها نورسين في خجل: (لقد خذلتك يا جدتي).

ابتسمت الجدة: (وقد خذلت أنا والدتي من قبلك.. لأنني لم أستمع لكلامها أيضًا، استمعي لي لا تهتمي لأي شيء، كلنا يخطئ يا صغيرتي، ولكن الأفضل دائمًا هو من يتعلم من خطئه، ذلك الذي يسعى جاهدًا ليصلح ما أتلفته يداه.. فيما مضي).

– (ولكني حتى لا أعلم أين أنا يا جدتي، لقد دخلت في ذلك القلب الغريب أعتقد أنه ابتلعني ووجدت نفسي هنا، ولا أقدر حتى على الخروج كي أصلح أخطائي.. أنا فشلت، لقد فشلت في إنقاذ عالم الخيال، وأيضًا أنا لا قيمة لي في عالم الواقع.. إننا مجرد سد خانة في تلك الحياة البائسة التي نعيشها، ما نَفْعُنَا بين عالم كلُّه أصحاء ينبذوننا).

اقتربت منها الجدة وهدجتها بعينها وهي تربِّت على وجنتيها الصغيرتين:

(من قال إنكم مجرد سد خانة كما تقولين، لم يخلقنا الله في عبث يا صغيرتي، لكل منا دور في هذه الحياة الدنيا، تعالي معي يا صغيرتي سأريك شيئًا ما).

أمسكت بيدها وتمشيا في تلك الصحراء القاحلة، لفحها لهيب الشمس، فبدأت تغطي وجهها من حرارتها، سارا مسيرة طويلة حتى وصلا إلى تلة متوسطة الطول تسلقاها سويًّا وقد أوشكت نورسين على الوقوع مرات عدة، وتعثرت عدة مرات بسبب الأحجار الكثيرة التي

امتزجت بترابها حتى وصلا إلى قمتها فتوقفت الجدة وأمرت الفتاة بالتوقف تباعًا ثم أشارت إلى الصحراء بأصبعها وبحركة دائرية وهي تقول: (انظري يا صغيرتي إلى هذه الصحراء الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء).

فنظرت الفتاة على مضض وهي لا تفهم ما الذي تريده جدتها من تلك التلة أو النظر إلى الصحراء فأجابتها: (إنها أرض ميتة يا جدتي لا حياة فيها).

أجابت الجدة في هدوء: (انتظري وانظري.. الصبر مفتاح أمور كثيرة).

عكفت الفتاة وهي تراقب عن كثب، وإذ بطائر صغير يحلق دون هوادة، وهو يلهث باحثًا عن ماء أو أي نبتة لتناولها فيبدو أن الجوع والعطش قد تملك منه، فوجد نبتة صغيرة وحيدة في تلك الصحراء فوقف فوقها وأخذ ينقرها بفمه ويلتهم منها ما تيسر له حتى جذورها فألتهما كلها، ولما جذبها بقوة وهو يأكلها انبثقت من الأرض بعض قطرات الماء القليلة من جوفها فارتشف الطائر ونفش ريشه فرحًا بما أعطاه الله، فقد شبع وارتوى أيضًا، ولما نال ما تمنى غادر وطار محلقًا بعيدًا في السماء.

ما زالت نورسين تجهل ما الحكمة في مشاهدة هذا المنظر فتعجلت في سؤال جدتها: (لست أفهم ما الحكمة من رؤية هذا المشهد؟).

قابلت الجدة تسرع الفتاة ولهفتها بابتسامتها المعتادة وقالت: (انظري هناك قافلة قادمة من بعيد).

حملقت الفتاة فوجدت قافلة ليست بكبيرة يبدو أنهم عشرة رجال وبعض النسوة والأطفال، يركب النسوة في هودج فوق الجمال، ويسير الرجال أمامهم يجرون تلك الجمال، ويبدو عليهم الإعياء والتعب، فنادى منادٍ أن قد وجدنا قطرات ماء هلموا، فأسرع الباقون وأوقفوا الجمال، وهرولوا سريعًا إلى المكان المشار إليه.

فقام رجلان منهم يحفران الأرض، فانبثق منها ينبوع صغير، وأخذ يجري الماء أسفل منهم فكبَّروا جميعًا وسجدوا شكرًا لله، أسرع النسوة والأطفال والجميع على الماء يشربون ويرتوون ويحمدون الله، كانت بينهم سيدة تبدو صغيرة في السن تحمل رضيعًا كانت ضعيفة هي ووليدها أسرعت تفعل كما فعلوا وترتوي وتحمد الله قائلة: (لك الحمد ملء السموات والأرض، يا قدوس يا عظيم كدنا أن نموت في هذه الصحراء، أيام ونحن في حال يرثى لها من الجوع والعطش، وقد جف لبني وكاد طفلي أن يموت مني).

فبدأت تهدأ وتطعم صغيرها مما رزقه الله من لبنها، فتوجهت الجدة بناظريها إلى نورسين قائلة: (أتدرين يا صغيرتي ذلك الطائر الهائم بدون أرض في صحراء قافرة يبحث عن طعام وماء كان سببًا في انبثاق تلك الماء لهؤلاء الناس العطشى!! مجرد طائر صغير لا يتحدث ولا حتى يعقل ولا يملك من أمره شيئًا غير أن يحلق في سماء ربه! أو تعلمين أيضًا ذلك الرضيع الصغير الذي كان في حضن أمه والذي كتب له الله الحياة وجعل الطائر سببًا لهم سيكبر وينجب طفلًا هذا الطفل سيكون له شأن عظيم سيكتشف علاجًا لمرض أهلك بسببه الآلاف من البشر، وسيجعله الله سببًا في نجاتهم، انظري يا صغيرتي

من كان السبب من البداية؟ إنه ذلك الطائر المسكين الذي لا حول له ولا قوة).

تعجبت نورسين من حديث جدتها وشعرت بالخجل لقولها: إنها لا تعني شيئًا ثم قالت: (عجيب هذا الأمر يا جدتي.. حقًّا عجيب أن يكون لأقل واحد منا دور ربما أكبر مما كنا نتخيل! سبحان الله!!).

ابتسمت الجدة، وبدا هناك ضباب بدأ ينقشع عن عين نورسين وكأن الحقيقة قد أنارت داخلها وكشفت ما بها من ضر لتمحوه.

ثم اختفت الجدة وأفاقت نورسين ووجدت نفسها بداخل القلب الغريب هذا من جديد، فتبسمت وقد فهمت الحكمة من زيارة جدتها لها أو ربما كان هذا القلب الذي ابتلعها يستدعي قوة أخرى، فإما أن يقاومه قلب نورسين أو أن ينساق له فيصبح نسيًا منسيًّا، بعد أن فهمت الحكمة مما رأته كأن روحها قد عادت إليها وامتلكت قوة لا تقهر فقالت: (لن يهمني أن أكون حبيسة قلب في ظاهره الرحمة وفي باطنه العذاب، سأبقي قلبي أنا نقيًّا لا يبالي مهما عصفت به الحياة).

فانبثق ضوء وكأنه خنجر طعن القلب وبدأ يتفتت، وخرجت نورسين، ووجدت كل القلوب التي حبست فيها أصدقاؤها تتفتت بدورها هي الأخرى وخرج الجميع منها، أما عن القلب الأساسي فبدأ يتقهقر في خوف فنظرت له نورسين وهي تبتسم وقالت: (أنت لا شيء، إننا نحمل قلوبًا أقوى منك).

فتفتت بدوره هو الآخر، وبدأت تظهر قطعة جديدة لامعة تشبه تلك الأخرى التي تحملها نورسين، فأمسكت بها ووضعتها بجوار الأخرى، فوجدت أنها لشكل سيكتمل عند اكتمال القطعة، وفهمت

أنها أحجية أما عن باقي أصدقائها والدعسوقة فحيوا شجاعتها، ونظروا في تحد للباب الجديد الذي ظهر أمامهم.

اقتربت الدعسوقة من الباب، وأخرجت عصاها وطرقت بها ثلاث طرقات فأضاءت وهي تنظر لهم وتقول: (لا تنسوا أن الباب الثالث هو باب الغابة المظلمة).

اقتربوا في حذر، وفتح أنس الباب، ثم تقدمته الدعسوقة بالضوء الذي تحمله، ودخلت هي الأولى لتنير لهم، كان المكان مليئًا بالنباتات المستوحشة في المكان، وكأنها تغزوه كله، اقتربوا وهم حذرون بعد أن أغلقوا الباب خلفهم، فأصبحت الدعسوقة تمشي وسط الغابة وهم خلفها، ثم سمعوا صوت خرخرة مخيفة، وقفت الدعسوقة وقد انتفضت ثم اقترب من خلف الأشجار نمر ضخم كبير البنية وكأنه في حجم الديناصور الكبير، تقدم ببطء ناحيتهم وهم يتقهقرون إلى الخلف، التصقوا جميعًا ببعضهم البعض، وعيونهم معلقة صوب ذلك النمر المخيف وهو يقترب، فأخرج (علِي) من جيبه سمكة كان يخفيها فألقاها عليه فانقض النمر عليها ولكنه لم يلتهمها أخذ يشمها ثم تركها، وعاد إليهم، ولكنه لم يجدهم، كانوا قد ولوا مدبرين، تخفوا بين الأشجار في رعب وهم يتحسسون طريقهم، وقد أغلقت الدعسوقة الضوء الخارج من عصاها، وظلت ممسكة بها وهي خائفة تترقب بجوارهم.

كان النمر يشتم المكان بحثًا عن آثارهم، حينها سمعوا خلفهم صوتًا يقول: (النمر أحمق يمكنكم لهيه بأي شيء كما فعل الفتى الذكي حين ألقى عليه السمكة).

التفتوا جميعًا في أن واحد إلى مصدر الصوت؛ فإذ بها فتاة جميلة واقفة خلفهم، حاملة معها رمح كبير وترتدي ملابس غريبة مصنوعة من أوراق الأشجار وبعض النباتات، فاقتربت لتكون في مواجهتهم، وهي تتقدم ناحيتهم بعدم اكتراث.

التفت إليها يوسف وهو يتفحصها: (فتاة مصابة بالتوحد في عالم الواقع، أعلم ذلك، حس المغامرة يبدو واضحًا جليًّا عليك).

اقتربت منه وقد حملت رمحها خلف ظهرها كأنه بندقية، ومن ثم التفتت إليه قائلة: (من أكثر شغفًا ومرحًا مثلنا أيها الفتى.. لقد تركت عالم الواقع إلى الأبد).

قالت نورسين وعلامات الغرابة على وجهها مثل الجميع: (وهل يمكن ترك عالم الواقع إلى الأبد؟!).

أجابتهم بتحفظ وكبرياء: (ومن ذلك الأحمق الذي يختار العيش في مثل تلك الغابة التي لا حياة فيها. التي يسمونها أرض الواقع).

ثم أمسكت برمحها والتفتت في حركة مفاجئة، وكأنها تمتطي الرمح كالحصان، ثم قذفته في الهواء والتقفته بيديها وألقته على النمر فارتد واقعًا، لقد قضت عليه من قبضة واحدة، وهي تعود لتقف بكل ثقة من جديد، وتنظر إليهم بطرف عينيها: (حسنًا، لقد قضيت على الهرة التي كانت تخيفكم الآن اتبعوني).

ساروا خلفها وهم يتلفتون لبعضهم البعض في حذر منها ومن الغابة حولهم، وهم يترقبون حتى وقفت عند تلة يبدو أن أسفلها هوة سحيقة، ما أن نظروا منها حتى وجدوا أن أسفلهم هو المجهول بعينه.

اقترب علي منها وهو خائف ثم عاد إلى مكانه وأمسك بنورسين: (حسنًا يا عزيزتي، لم نتفق على أن تبتلعنا فوهات بركانية مظلمة). تركته نورسين واقتربت من الفجوة وبجوارها أنس ويوسف والدعسوقة، وهم يحاولون أن يرو أي شيء لكن لم يكن إلا حفرة عميقة لا نهاية لها.

جلست الفتاة ووضعت رمحها بجوارها وهي تتنهد: (حسنًا، أنا شجاعة جدًّا بما يكفي لأن أكون محاربة شرسة، لكني لم أقوى على الدخول إليها بمفردي منذ علقت في تلك الغابة).

سألتها نورسين: (إذن أنت عالقة هنا، ولست كما ادعيت أنك من محبين المغامرة؟).

– (نعم يا عزيزتي، وكلكم عالقون أيضًا، ألم ترِ أن أصدقاءك لم يفق أي منهم إلى الآن ولم يعد إلى عالم الواقع؟!).

انفعل أنس وقد امتزج الخوف والغرابة به في آن واحد ثم قال: (أيتها الفتاة، أخبريني الآن ما الذي يجري).

أشاحت بنظرها إلى الدعسوقة ومن ثم قالت لها: (ألم تخبريهم بعد؟!).

ابتلعت الدعسوقة ريقها وهي تنظر إليهم بخجل وقد استشاطت نورسين غضبًا وهي تحاول معرفة ما الذي يجري، فأجابتها وحمرة الخجل لم تغادرها: (لم أخبرك أن أصدقاءك الآن قد تغيرت حياتهم مثلك باختيارهم دخول العوالم الست في أرض الأحلام، فهم الآن يعاملون مثلك تمامًا لقد تغير واقعهم بإرادتهم، ولا أعلم من يكونوا الآن في أرض الواقع، ولكن كل ما أعرفه أنه كلما زاد عدد من دخلوا

أرض الممالك الست كلما زاد نفوذ وسيطرة جايا على كلا العالمين الواقع والخيال سويًّا).

اقتربت منها نورسين وقد تطاير الشرر من عينيها وكادت دموعها تخرج منها: (إذن لقد دمرت حياة أصدقائي وأنا لم أعرف، لم تخبريني أنني أدمر حياتهم؟ لم تخبريني حين جعلتني أختار عالم الصداقة الوهمي هذا أنه فخ..لما عليك أن تفعلي هذا).

ما زالت الدعسوقة تنظر إليها على استحياء من فعلتها وهي تجيبها والكل أعينهم متعلقة بها: (لم يكن باختياري، أرض الصداقة اختارتهم، وإن كنت أخبرتك أنه سيُفعل بهم هذا لكانت رحلتك قد أصابها الخلل ولم تكتمل، لقد تم اختيارهم يا عزيزتي، لم تختاريهم أنت ولا أنا، ولكن عالم الخيال هو من اختارهم ليكونوا موجودين في عالمك الخيالي المسمى بالصداقة، وغياب أي منهم يعني أن تلك الرحلة لن تكتمل، كان علَي أن أصمت حتى نقضي على جايا.. ثم إنهم وافقوا بالدخول أيضًا لم أجد اعتراضًا منهم، لو كان أحدهم اعترض لبقي في أرض الواقع، ولغادر الأحلام إلى الأبد، ولكن يبدو أنهم ينتمون إلى هذا العالم ولقد رأيت ذلك بنفسك).

حاولت نورسين أن تصرخ في الدعسوقة لكن أنسًا أوقفها:

– (اهدئي نورسين، لم يكن واقعنا مرجوا كي نبكي عليه، لقد أحسن عالم الصداقة في أرض الأحلام باختيارنا، إنه اختيار موفَّق، فنحن حقًّا لا ننتمي إلى الواقع.. الآن كفانا نحيبًا، وعلينا أن نكمل مهمتنا.. أما أنت أيتها الدعسوقة لا مزيد من الأسرار مجددًا).

طأطأت رأسها تعبيرا عن حزنها وامتنانها لهم أن صفحوا عنها، ثم جلسوا جميعًا بجوار الفتاة وهم ينظرون إلى الثقب الكبير أمامهم.

لحظات صمت ثم قام يوسف وهو يربط حبله المعتاد حول خصره وقد نظر إلى الجميع وهو يبتسم: (من يجد في نفسه الشجاعة أن يتبعني فليتمسك بي جيدًا).

قبل أن يقرر الجميع والذين كان كلٌّ منهم ينظر إلى الآخر في تردد هرولت الفتاة ناحية يوسف والتصقت به، وهي تقول: (مغامرة أحب المغامرات بالمناسبة اسمي لمى.. هيا أيها الفارس فلننطلق).

حاول كل من الموجودين أن يثنيهم عن أفكارهم الجنونية، ربما حتى أن يفكروا مليًّا قبل الإقدام على تلك الخطوة المجنونة، لكن يوسف لم يكترث والفتاة لمى متعلقة به ثم ألقيا بنفسيهما إلى داخل الهوة السحيقة، وهما يصرخان صرخة النشوة والسعادة والمغامرة.

ثم اختفى صوتاهما وظل الباقون ينتظرون في شغف وخوف لما سيحدث، وعيونهم لم ترتفع عن المكان، وهم يترقبون ما الذي سيكون.

غاب يوسف طويلًا ثم عاد وهو يلهث ويتشبث في جدران الفجوة، فهرول الجميع ناحيته ليخرجوه، ولكنه عاد بمفرده فنظروا ليروا الفتاة لكنها لم تعد معه، كان يوسف يتلفت بخوف، وأخرج قطعة من الأحجية التي كانت تجدها نورسين كلما دخلت إلى أحد تلك الممالك الغريبة، كان يتحدث بسرعة وكأن هناك ما ينتظره ثم أعطى قطعة الأحجية لنورسين وقال وهو يتحدث سريعًا ويتلفت: (الغابة لم تكن غابة كما تخيلناها لقد كانت أرض الواقع، لقد عدت هناك بهيئتي

ووجدت سخرية الناس من بعضهم البعض، وجدت أننا منبوذون، وجدت أن القلوب الطيبة قليلة، وجدته عالمًا موحشًا جدًّا.. لقد امتص مني الأحلام لم أعد يوسف كما عهدتيه يا نورسين، كي أحصل على الأحجية كان علي أن أتخلى عن البراءة والآن علي أن أعود وإلا جذبوكم إليهم هذا هو الاتفاق، لا تبحثي عني عودي وأكملي الرحلة وسوف أتحرر ما أن تتخلصين من الشر وتحررين عالم الأحلام، سأعود وأكون ملكًا في هذا العالم فقط، كوني قوية نورسين، اهزمي الشر، أنت لها إنني أثق بك).

حاولت نورسين أن تثنيه عن العودة، ولكنه نظر لأسفل وكأنه يباعد يد مارد كبيرة تخرج، فابتلع ريقه وقال: (كان علَي التضحية يا أصدقائي، خذوا الأحجية، والآن هيا ابتعدوا من هنا.. انظروا هناك لقد ظهر الباب الرابع).

قالها وقد ألقى بنفسه مجددًا بمجرد أن التفتوا ليشاهدوا ما أخبرهم به حاولت نورسين أن تجري خلفه وتناديه وهي تبكي: (يوسف عد يا يوسف، ليس عليك التضحية بنفسك).

فأمسكت بها الدعسوقة وهي تقول: (علمت الآن يا عزيزتي، لما تم اختيارهم لكل منهم دور عليه أن يؤديه بإتقان وإلا باءت مهمتنا بالفشل. أحسنت اختيارهم يا عالم الخيال، هيا نورسين هلمي بنا لننتهي من مهمتنا).

اقترب أنس وعلي من نورسين وهم يهدجونها بأعينهم في حزن ثم جذبوها برفق ومشت معهم وكأنها منساقة تتلفت خلفها وتنظر إلى الحفرة حزنًا على يوسف.

دخلوا إلى الباب الجديد، إنه الباب الرابع من المفترض، إنه أرض الساحرة الشريرة، لكن المكان كان مخيفًا أكثر من كل الأماكن التي رأوها في السابق، كانت أرضه عبارة عن زجاج، كلما مروا على جزء تحطم تحت أقدامهم وأحدث جلبة وهم يحاولون تفادي قطع الزجاج في خوف وهلع، أما جدرانه فكانت كلها عبارة عن مرايا العشرات بل المئات منها.

كانوا كلما نظروا إلى أنفسهم في المرآة كانت تظهر مختلفة، لا ملابسهم التي يرتدونها ولا حتى هيئتهم، إنهم هم بشكلهم المعتاد ولكن نظراتهم كانت في المرايا خبيثة ماكرة حتى نورسين كانت ترتعد من النظر إلى نفسها فيها.

كان خلفهم صوت فحيح كفحيح الأفاعي كلما التفتوا إلى مصدر الصوت توقف حتى توقفوا، والرعب يتملكهم وهم يتحسسون طريقهم في خوف، ثم اقترب علي من إحدى المرايا وهو يتأملها بطريقة غريبة، اقترب الجميع منه وهم يحاولون معرفة ما الذي جعل (علي) يتأمل المكان بتلك الطريقة المريبة، لكنه لم ينظر إليهم حتى، واستمر في تمعن النظر للمرآة ثم اقترب بيده منها وهو يتفحصها، فكانت المرآة تخرج منها أمواج كأمواج البحر، كلما اقترب منها ولمسها ابتعد الجميع، ولكن عليًّا لم يبتعد وهو واقف يتفحص المرآة الغريبة تلك، نظر إلى جيبه ومن ثَمَّ مد ذراعه وأخرج سمكة كان يخبئها كما اعتاد أن يفعل دائما باحتفاظه بالأسماك في جيبه.

اقترب منه أنس وعلامات الدهشة تعتريه: (كيف تعيش تلك السمكة في جيبك؟!).

ابتسم علي وهو يقربها من المرآة: (إننا في أرض الأحلام أنسيت، أنا أعشق عالم البحار لذا كان عالم أحلامي هو البحار، كما رأيتموني أخرج من الماء، فأنا احتفظ في جيبي بمملكة صغيرة للأسماك التي أحبها، الآن أنا أشعر أن تلك المرايا تدفعني للانجذاب إليها، وكأنني في عالمي).

ثم ألقى السمكة على المرآة فبدأت تعوم فيها وتتحرك وتقفز وكأنها داخل البحر، الكل واقف ينظر إلى (علي) الذي كان يتفحص السمكة، ومن ثم ومن غير سابق إنذار حتى ألقى بنفسه داخل الماء فصرخ الجميع في آن واحد: (ماذا تفعل؟!).

ابتسم لهم من خلف الماء ومد يده وجذب نورسين معه، كانت تصرخ وهي تدخل إلى المرآة، ولكنها ورغم أنها بداخل الماء إلا أنها كانت تتنفس، فأشار علي إليها بأصبعه إلى خارج المرآة، فنظرت من خلف الماء إلى الدعسوقة وأنس اللذان كانا واقفين لا يعلمان ما الذي عليهم فعله ومن ثم صرخت نورسين بداخل الماء وخرجت منها تلك الفقاعات التي تخرج ممن يحاول التحدث في الماء دون أن يخرج صوته، وأشارت لهم ليأتوا إلى الداخل بسرعة، ولكن قبل أن يدخلوا شيء خفي ما جذب الدعسوقة وأنسًا الذي كان يصرخ ويحاول أن يقاوم شيئًا لا يراه وقد رفعهم الشيء في الهواء.

صرخت نورسين وحاولت أن تخرج من الماء لكن عليًّا أمسك بها خوفًا عليها، والدعسوقة وأنس كانا يحلقان في الهواء، والرعب يعتريهم فأمسك علي بنورسين وهو يثنيها عن الخروج، ثم أسرع بيده الأخرى وأمسك بسمكته التي ألقاها في الماء، وقذفها في وجه نورسين

فأخرجت السمكة سائلًا أسود اللون جعل نورسين تقف في مكانها وقد أغمضت عينيها وسكنت، وشعرها يتطاير في المياه من حولها.

ومن ثم فتح فمه وكأنه سيلتهم الماء رغم أنه سائل، وبالفعل ابتلع الماء من حوله فانتفخ جسده وأصبحت المرآة خالية من الماء، فقد خزنه بداخل جسده، وخرج من المرآة وألقى بكل الماء الذي في فمه في مواجهة الشيء الخفي، فظهرت ساحرة غريبة الشكل، نصفها سمكة كحورية البحر، ولكن قشرها كأشواك تغطي جسدها بالكامل، شعرها طويل أرجواني، ووجهها مرعب وأسنانها حادة مدببة، ما أن ألقى علي الماء عليها حتى صرخت وألقت الدعسوقة وأنسًا من يدها اللذان وقعا على الأرض وهما ينظران لما يحدث في ذهول.

قام أنس مسرعًا والساحرة تصرخ وتحاول أن تلوذ بالفرار بداخل تلك المتاهة المليئة بالمرايا، فجذبها من شعرها وقفز علي بسرعة وأخرج من جيبه الآخر شبكة وأخذ يلفها بها وهي تصرخ صرخات تصم لها الآذان، وبعد أن لفها جيدًا هو وأنس قال له علي: (الآن يا أنس، هيا يدك في يدي فلنلق بها في المرآة الكبيرة هناك).

فأخذا يجذبانها بقوة بين يديهم وهي تصرخ وتحاول التمسك بالأرض الزجاجية أسفلها، وكلما حاولت النهوض باغتها علي ومد يده إلى إحدى المرايا ليخرج الماء ويلقيه عليها فتزداد صراخًا وضعفًا.. إلى أن أمسكوها بكل قوة وألقوا بها داخل المرآة الكبيرة، ومن ثم اختفت بداخلها.

تنفس اثناهما الصعداء بعد أن ألقوها وأنس يضحك ويحتضن عليًّا أما الدعسوقة فكانت ممسكة بنورسين التي كانت تفوق ببطء،

وهي تنظر إلى الجميع في ذهول وتحاول أن تستعيد وعيها فقالت: (ما الذي حدث؟ لما ألقيت على وجهي سمكتك الغريبة هذه يا علي؟).

ابتسم علي وهو يقترب منها: (آسف حقًّا يا نورسين، لم يكن لدي اختيار آخر لم يكن هناك وقت للشرح إلا أن أجذبك بداخل الماء لتري بنفسك الساحرة فقد رأيتها قبلكم فأنا اعتبر نفسي سمكة من كثرة ما أعيش بينهم، رأيتها على الجانب الآخر كان عليك أن تدخلي إلى المرآة لتريها).

قالت له وقد استعادت جزءًا من وعيها: (وكيف علمت بكيفية التخلص منها).

أجابها وهو يبتسم ويمد يده ليمسك بسمكته التي كادت تختنق وهي واقعة في بركة صغيرة من المياه التي تبقت ولا تكفيها للتنفس وهو يعيدها إلى جيبه مرة أخرى: (إنه عالمي يا نورسين، المياه كما أخبرتك، والحقيقة لم أعرف كيفية التخلص من الساحرة، ولكني فكرت وأنا بداخل الماء: لما على ساحرة تبدو كسمكة شرسة أن تبقى خارج المياه التي بالمرآة؟! إن كانت سمكة فعليها أن تعيش في الماء.. ولكن الحقيقة أن عالم المرايا الذي نحن فيه الآن والذي ينتمي للساحرة ما هو إلا مياه كانت خياشيمي التي احتفظ بها في صدري، تخبرني أننا بداخل الماء، فكيف للمرايا أن تكون هي الماء؟؟ إنها ساحرة ماكرة، ما نحن فيه هو عالم معكوس الهواء بداخل المرايا نراه ماء ونعيشه، والهواء بالخارج الذي نعيشه الآن ما هو الا ماء وخياشيمي تخبرني أن علينا الخروج منه بسرعة قبل أن تختنقوا.

نظرت الدعسوقة إلى الهواء حولها فوجدته يتقطر، وهي تسعُل والكلُّ معها، فشكروا عليًّا وهرولوا بسرعة لإيجاد الباب الخامس وقبل أن يجدوه نادى عليهم علي: (نورسين لقد ظهرت قطعة أحجية في المرأة الكبيرة التي ألقينا بها الساحرة، ثم أمسكها بسرعة وهرول معهم إلى الباب الذي ظهر أمامهم من المجهول كعادته.

أرض الأوزاي: إنه وقتها ترى ما هي تلك الأرض؟! أكان هذا هو كل ما يجول في خاطرهم عند دخولها الطريق الذي لا يشبه الطريق، يبدو غريبًا كدوامة تدور حول نفسك بمجرد دخولها، كانوا يسيرون فيه مسافات طويلة ثم يعودون من حيث جاءوا الأرض، وكأنها محور نفسها هنا لا نهاية لها، وكأنك تدور في دوامة دائرية غريبة الشكل، دوائر بداخل دوائر كبيرة وصغيرة، تحيط بها منعطفات وكأنها طرقات وعرة وسهلة في نفس الوقت، الأمر الذي يصيبك بالحيرة الشديدة لا تدري أطريق بسيط أم متعرج طويل أم قصير؟!

حتى وقفوا عن البحث، فالدوران أصابهم بالغثيان جميعًا، وكأنهم يركبون طارة تدور بهم، جلسوا على جانب وعيونهم تتلفت إلى أي مدى هذا الطريق، هل ثمة هناك أمل في إيجاد أي شيء في تلك الدوامة التي لا نهاية لها؟

قامت الدعسوقة وهي تشعر بالدوار ثم تلفتت وقالت: (أهذه أرض الأوزاي الغريبة التي لا يعرف أحد وصفها!! لا أصدق أننا وصلنا إلى تلك المرحلة رغم كل ما مررنا به فأنا حقًّا سعيدة أننا وصلنا إلى هنا، ولكنني أتساءل كيف يبدو الأوزاي هذا؟).

ثم شعرت بدوار شديد وأمسكت برأسها وسقطت أرضًا، هرول الباقون عليها، ولكنهم جميعًا شعروا بما شعرت به وارتموا بجوارها.. لحظات وكان هناك بركان كبير هم على قمته، وبدأت كائنات غريبة الشكل صغيرة لها وجه مثلث وجسد مربع وأطراف دائرية، وكأنهم أشكال هندسية التصقت ببعضها بطريقة عشوائية غير منسقة.

كانوا ممسكين بهم وهم يصرخون: (أوزاي.. أوزاي).

صرخ أنس والدعسوقة وعلي في خوف وهم مقيدون، لا يعرفون كيف يتحررون من تلك القيود المحكمة الإغلاق عليهم بشدة، التفت أنس إلى الدعسوقة والحمم البركانية وحرارتها تكاد تلتهمه، وهو يبعد وجهه عنها وينادي على الدعسوقة: (أيتها الدعسوقة، أعتقد أنه كان لك دور عظيم مع نورسين، وفي تجميعنا كلنا كان لكل منا دوره أرى أنه حان دوري في اكتشاف سبب اختياري.. لن نخرج من هذه اللعبة منكسرين مهزومين أبدًا لم يكن هذا من شيمي، فأنا لم ولن أستسلم في حياتي أبدًا، ولقد توقفت كل حيلنا وأفكارنا، ولكنني أعدك أنت ونورسين وعليًّا أنني سأخلصكم مما أنتم فيه).

ثم رفع قدمه والتف حول نفسه بسرعة وتخلص من القيود التي كان موثقًا بها، وهرول بسرعة والكائنات الصغيرة خلفه ما زالت تنادي بذلك الاسم الذي يبدو أنهم لا يقولون غيره، ثم توقف عن الجري ونظر إليهم نظرة غريبة واقترب منهم وكأنه لا يهابهم أو كأنه يملك سلاحًا سريًّا سيخلصه منهم بدأ يتقدم ناحيتهم وهم يتقهقرون إلى الخلف وهو يبتسم، ثم ضحك بكل ثقة وقال: (لقد علمت سركم أيها الحمقى، لن تفلح خطتكم أبدًا.. فليذهب الأوزاي إلى الجحيم).

ثم اختفى أنس، صرخت نورسين وهي تنادي عليه: (أين ذهبت يا أنس؟ هل حدث مكروه لك؟ ما الذي يحدث أيتها الدعسوقة؟ أخبريني!!!).

وقبل أن تجيبها الدعسوقة كان كل شيء قد عاد نصابه، وكأنهم لم يتحركوا بل وقعوا من الدوار وأفاقوا مجددًا في نفس المكان الذي وقعوا فيه.

وكان أنس بجوارهم ينفض عن نفسه الغبار ويضحك، وقد أخرج من أسفل قدمه قطعة أحجية أخرى، وأخذ يتفحصها ثم قرب، ثم قربها ناحية نورسين: (انظري، قطعة جديدة).

تعجبت من فعلته وهي تأخذها منه ثم سالته: (وكيف لك أن تتخلص منهم، وأن تعيدنا نصابنا؟!).

ضحك أنس حتى بانت نواجزه ثم قال: (عزيزتي نورسين، نحن لم نتحرك من مكاننا لقد كانوا مسيطرين على عقولنا..إنهم يجعلونك تدورين في تلك الدوامة المرسومة بالأرض ثم يسلبون عقلك ويجعلونك في كابوس لا نهاية له).

أشاحت بوجهها: (كابوس أكثر مما نحن فيه الآن!! ولكن كيف عرفت بأمرهم).

- (حين حاولت مقاومتهم رأيت أشكالهم تختفي وتعود، فوقفت أتأملهم في غرابة وأجسادهم تختفي داخل المتاهة أسفلنا، فنظرت أسفل قدمي فوجدت المتاهة ما زالت موجودة، ولكنها تعود كلما هم اختفوا وتختفي كلما عادوا حتى أنني شاهدت ظلنا على الأرض ونحن مغشي علينا.. ففهمت ما يحدث، وأوقفت نفسي

أخذت أقول لها أن تصحوا فإنها مسلوبة، فأفقت الحمد لله وقمت بإفاقتكم كما رأيتم).

فرحت وشكرته هي والدعسوقة وعلي، وبدأت تمسك الأحاجي في يدها وتضعهم بجوار بعض لم تميز ما الشكل الذي سيظهر، يبدو شكل هام وكبير في المنتصف هو المتبقي.

لكن الباب السادس لم يظهر بعد، لم يظهر كعادة الأبواب الأخريات التي ظهرت بمجرد ظهور قطعة الأحجية، تلفتوا حولهم كانت المتاهة قد اختفت تمامًا ولكن أين الباب؟! لم يظهر بعد!!

بدأت الدوامة تعود مرة أخرى إلى شكلها الغريب ثم تجمعت الدوائر كلها أسفلهم إلى دائرة واحدة محيطة بنورسين فقط.

حاولت أن تخرج قدمها من تلك الدائرة الغريبة المحيطة بها وتبتعد عنها ولكنها وكأن هناك حاجزًا شفافًا لا تراه حجزها داخل الدائرة، فانتفضت الدعسوقة وباقي الفريق ومدوا أيديهم ليخرجوها لكن أيديهم لا تدخل إلى مكان نورسين، جُنَّ جنون أنس وأخذ يضرب بيديه بقوة فوق الجدار الخفي الشفاف بينهم وبين نورسين ويصرخ وينادي عليها، ولكن صوته لا يصل إليها ومن ثم تحرك المكان، ودارت الدائرة بقوة شديدة، وانفتحت فجوة طويلة ممتدة من السماء إلى حيث تقف نورسين ثم ابتلعتها وكأنها تلاشت تمامًا.

* * *

الفصل السابع

(الممر)

كان هناك شيء قذفها على قبة صخرية غير مستوية يشوبها ضباب كثيف، يصعب من خلاله الرؤيا، ومن ثَم انفلتت الأحجيات من يديها وتعلقت في الهواء كأن هناك من يمسكها، ثم التصقت ببعضها البعض وجاءت القطعة الأخيرة الكبيرة من وسط الضباب كأن ريحًا خفية كانت تحملها، ومن ثم التصقت بهم ولمعت الأحاجي كضوء نيزك خارج من أجرام سماوية ومن ثم هدأت وتحولت إلى كتاب.

إنه ليس أي كتاب، كان هو الكتاب الذي أهدته إياها الجدة، لكنه بدا جديدًا ولامعًا وكبيرًا، كان غريبًا جدًّا، مدت يدها وجذبته بلطف، وهي تتفحصه بغرابة، ثم فتحت صفحاته كانت ممتلئة على آخرها تلك الأحاجي التي كانت به، والكلمات الغريبة، فكت طلاسمها وأصبح كتابًا يسهل تصفحه.

تقلبت الوريقات بين يديها من تلقاء نفسها وانفتحت على صفحة كتب عنوانها: (الممر).

وما أن بدأت تقرأ حتى ظهرت أمامها سيدة تشبه الجنيات في عالم ديزني ترتدي فستانًا فخمًا شديد الروعة يتلألأ منه وميض محبب

إلى العين، وتضيء نجمات صغيرة حول شعرها الأسود وكأنه سماء ليل التحفت بالنجوم، جميلة كحبات الكرز وشفاهها تشبه التوت البري.

أخذت الكتاب من يد نورسين بهدوء وهي تبتسم: (مرحبًا أيتها الإنسية.. إنك الأولى هنا لم يجتاز أبدًا أحد الممالك الخمس السابقة ليصل إلى آخر محطة وهي الممر، أرى أن جدتك أحسنت اختيارك).

نظرت إليها نورسين بخوف وفضول فهي وحيدة من دون فريقها الذي ساعدها، حتى الدعسوقة لم يتم السماح لها بالدخول، قالت نورسين في حذر: (هل أنت تابعة لجايا؟).

ضحكت الأخرى: (أنا حارسة الممر..أرى أن الكتاب فتح لك، إنه يحبك لقد اختارك هو الآخر).

– (أنا لا أفهم شيئًا.. في أي مكان وأي عالم نحن الآن من تلك العوالم؟!).

– (عزيزتي نورسين الممر هنا هو الطريق إلى كل العوالم والأهم هو الطريق إلى الأحلام كلها.. إنه المركز أعني إنه المملكة السادسة والأخيرة، ولكنه أقوى مملكة فيهم، دعيني أريكي).

تقدمت أمامها وهي تمشي ومن أسفلهم هواء وكأنها تمشي على لا شيء، ابتعدت نورسين وهي خائفة من أن تتبعها فابتسمت لها الأخرى ومدت يدها: (لاتخافي يا عزيزتي، أنت مرحب بك هنا).

تخطت خوفها بحذر، فلما مرت به جعل قلبها يكتسب شجاعة لا مثيل لها، ثم خطت أول خطواتها بحذر فوجدت أنها تسير مثل الحارسة، وكأنها تنتمي إلى ذلك المكان فشعرت بهدوء في داخلها بعد

أن كانت عواصف الخوف تحوم حولها ومضت تسير على خطوات الحارسة إلى المكان التي ستذهب إليه.

كانت تنظر حولها وهي تسير على الهواء الضبابي... أصوات غريبة.. أصوات لأناس يتحدثون... يضحكون ويبكون أسفلها، أطياف تهرول بينهم وهي تبتعد في خوف ثم تبتسم إليها الحارسة وتخبرها أن كل شيء على ما يرام، ليس عليها أن تخاف الأطياف ولا الأصوات ستعرف كل شيء في أوانه.

حامت حولها أطياف لأطفال صغيرة ممسوحة الملامح لا شيء في وجهها لقد كانت تضحك وتدور حولها: (نورسين الصغيرة اجتازت الاختبار).

أزاح أحدهما الآخر وهو يضحك وقال: (اتركها أيها الأحمق أنت تخيفها).

فرد عليه: (بل أنت الأحمق.. إنها المرة الأولى التي أرى أحدهم يجتاز الممر إنها فتاة لطيفة).

الفتت إليهم الحارسة بهدوء وأعادت وجهها حيث كان وهي تقول: (هيا أيها الصغار اتركوها الآن كفى فقد تخيفونها).

فأشاروا إليها بيديهم وهم يغادرون: (سنعود نورسين لدينا صور جميلة لك وأنت تجتازين العوالم الخمسة السابقة).

ففعلوا مع بعضهم ما كان من تجاذب الأطراف وضرب بعضهم بلعب وهدوء وهم ينهون بعض عن ملاطفتها حتى غادروا جميعًا.

كانت نورسين تنظر حولها وهي لا تصدق ما تراه، ما هذا العالم الغريب ما زالت تمشي وراء تلك الحارسة وهي لا تعرف حتى إلى أين

عليها الذهاب، والطريق أمامها طويل، ومن ثم تلك الكائنات الغريبة ممسوحة الوجوه التي كانت تلاطفها وتبدو مثل الأطفال يا له من عالم غريب حقًّا.

حتى وصلوا إلى قلعة كبيرة تبدو أنها قلعة على شكل كوكب زحل بحلقاته الدائرية الملونة، أمامها يقف حارث يبدو مثل الأطفال الصغار ممسوح الوجه أيضًا، ولكنه عبارة عن وجوه كثيرة مختلفة في وجه واحد كلما أدار وجهه وهو يسلم عليهم كلما تحول وجهه إلى وجوه عدة ومن ثم حين يهدأ يعود إلى الوجه الخالي الممسوح فرتعبت منه وابتعدت قليلًا ولم ترد عليه التحية فقال وهو يضحك مع الحارسة: (إذن أخيرًا جاء أحدهم حسنًا إنها خائفة مني، عليك أن تعتاديني أيتها الفتاة فهكذا أبدو متعدد الأشكال).

أمرته الحارسة أن يفتح لهم فأزاح الحلقات الملونة بإشارة من يده فابتعدت عن الكرة الكبيرة وانفلق باب بداخلها، فمرت الحارسة ونورسين خلفها حتى وصلت إلى مكان مليء بالمفاتيح، مفاتيح كثيرة وأحجامها مختلفة وأشكالها وألوانها كثيرة بطريقة لا توصف كأنها لا نهاية لها.

فاقتربت الحارسة ومدت يدها وجذبت مفتاحًا كبيرًا له قلب ماسي وقربته من نورسين وقالت: (هيا إنها اللحظة الحاسمة، خذي جربي هذا المفتاح).

ابتلعت نورسين ريقها وهي تأخذه منها: (ما الذي علَي أن أفعله وأين أضعه؟).

– (أخذت الكتاب منها وفتحت صفحة وأعطته لها: (هنا ضعي المفتاح في هذه الصفحة) تعجبت نورسين منها، فالصفحة مجرد

صفحة عادية كيف عليها أن تضع مفتاحًا فيها؟! أخذته منها وهي تتفحص الصفحة ولا تفهم:

- (حسنًا، أيتها الحارسة لا أفهم أين علَي أن أضع المفتاح؟).

- (فقط قربي المفتاح من الصفحة يا عزيزتي).

فقربته منها ببطء وهي تتحس طريقها خوفًا مما سيحدث، فظهرت فتحة عجيبة على شكل المفتاح، وكأنها صنعت خصيصًا له فوضعته نورسين بداخله.. فطارت المفاتيح التي حولها وكأنها قد جن جنونها وصوت انفتاح يطير العقول من ضجيجه الذي أصبح في كل مكان، وكأن هناك مليارات الغرف قد فتحت في آن واحد حتى صمت نورسين عن أذنيها حتى لا تسمع تلك الأصوات الصخبة من حولها ومن ثَمَّ توقف الصوت تمامًا وتحول المكان من حولها إلى مليارات الأماكن المختلفة؛ كأنها جما جم مفتوحة الشكل، وبداخلها أماكن مختلفة من جميع أنحاء الدنيا الواقعية وأرض الأحلام أيضًا.

فنظرت الحارسة إليها وهي تشير بيدها: (الآن اختاري أي مكان وادخلي فيه).

فتعجبت نورسين منها: (ما زلت لا أفهم أي مكان أدخله، ولما علي أن أفعل هذا؟).

- (حسنًا أيتها الصغيرة عليك أن تكتشفي بنفسك سأتركك وأعود بعد قليل).

فتركتها وخرجت كانت نورسين خائفة كثيرًا وحاولت أن تجري وراءها، لكن الأخرى منعتها وأمرت الحارس أن يغلق المكان خلفها، فما كان على نورسين إلا أن وجدت نفسها وحيدة في مكان يشوبه الرعب غريب لا تعرف ما الذي عليها فعله إلا أنها تذكرت كلمات

الحارسة أن عليها الاكتشاف بنفسها وعليها أن تدخل وتعرف ما الذي يوجد فيه.

وقفت قليلًا وقد كان عقلها مشوشًا تمامًا لا تعرف ما الذي عليها فعله هل تقترب أم تبتعد؟ ولكن ليس هناك سبيل للابتعاد فقد حبست هنا وحدها، وعليها أن تستمع لحديث الحارسة وتدخل.

تنفست بهدوء وهي تقول لنفسها: (أنت قوية نورسين لقد اجتزت صعابًا كثيرة هيا الآن تشجعي امضي قدمًا).

جرت قدمها واختارت مكانًا هادئا في أحد الرؤوس المفتوحة أمامها وولجت إليه.. كان هناك ولد صغير يهيم في المكان بغير هدي، يبحث عن أمه التي تركته فنادت عليه: (ماذا تريد أيها الصبي؟).

- (أنا أريد أمي).

- (وهل هي هنا؟).

- (أخبروني أنها في الجنة... هل هذه الجنة؟... أنا أريدها).

شعرت بوخزة حزن آلمتها ونظرت له وتنهدت فشاهدت في عينيه صبيًّا نائمًا يتقلب على سريره ففهمت أن الطفل يحلم وأنها في أرض أحلامه فمسحت على رأسه بيدها وهدجته قليلًا ومن ثم قالت له: (هل رحلت أمك عن العالم؟).

فبكى وقال: (لا، لم ترحل، إنها في الجنة، لقد أخبروني هذا.. خذيني معك إلى الجنة أنا أريد أن أرى أمي).

ولكن قبل أن تفعل له شيئًا وجدت شيئًا يقترب منه وهو نائم، فنظرت في عينيه جيدًا لتراه لقد كانت هي جايا الملعونة، إنها تحوم

في أحلام الطفل، وفجأة ظهرت سيدة من بعيد نادت عليه: (صغيري أنا أمك تعال).

فهرول الصبي ناحيتها واحتضنها: (أمي! لقد عُدْتِ، كنت أعلم أنني سأجدك هنا).

فهرولت نورسين خلف الصبي وهي تنظر إلى عيون أمه لقد كانت جايا متخفية في شكلها فصرخت نورسين: (جايا اللعينة، اتركي الصبي).

لكن يبدو أنها لا تسمعها ولا تراها، نزلت جايا على ركبتيها وأمسكت بيد الصبي وهي تقول له: (حبيبي، انظر إلي أنا لن أعود إلى عالمك، ولكن والدك يريد أن يلقي بك من بعدي في الطرقات إنه يكرهك لا تسمح له بذلك، كن قويًّا وخذ حقك بيدك).

فرد الصبي: (كيف آخذ حقي من والدي وأنا صبي صغير).

فضحكت واحتضنته: (تأخذ حقك بأن تقول له: لا، نعم يا صغيري، لا تستمع له أبدًا لا تقل إلا لا فقط).

– (ولكن يا أمي أخبرتني من قبل أنني علي أن أستمع لحديث والدي كي أكون كبيرًا ويسعدني الله وأسعد في حياتي، الآن تغيرين حديثك).

– (نعم يا عزيزي، عليك أن تستمع لي الآن).

ثم احتضنته وقامت من مكانها وهي ممسكة به بين يديها ومضت بعيدًا.

جن جنون نورسين وحاولت أن تمشي وراءها لكن جايا والصبي قد اختفيا تمامًا.

فخرجت من ذلك المكان، واختارت رأسًا آخر لتدخله، تفحصت المكان كأنه عرض أزياء لملابس كثيرة وهناك فتاة في الخامسة عشر تقريبًا تحتضن الفساتين وتهرول بها أمام مرآة كبيرة وترقص، فنظرت لها من بعيد، والأخرى ترقص وتتمايل في كل الاتجاهات حتى اختارت أحد الفساتين وارتدتها كان فستانًا واسعًا جميلًا أزرق اللون هادئًا وبسيطًا وأنيقًا رغم بساطة تصميمه ونظرت إلى نفسها في المرآة ولكن صورتها كانت ترتدي فستانًا آخر شفافًا يظهر مفاتنها وتضع أدوات تبرج كثيرة، ومن خلف المرآة قالت لها صورتها: (جميلة أكثر هكذا).

فأجبتها: (ولكن هذا خطأ، كيف سأرتدي ملابس فاضحة، وأكون عرضة لضعاف النفوس؟).

أجابتها الأخرى: (وما الضير في ذلك؟ ستكونين جذابة أكثر).

– (لا، أمي أخبرتني أن أنتبه لحياتي الدراسية، وأن أكون بعقلي لا بجسدي).

– (ولكنك صغيرة وجميلة، تعالي أريك ما سيفتح لك حين تستمعين لي).

فمدت يدها من المرآة إلى الأخرى أمامها، فأعطتها الأخرى يدها، وما أن اقتربت من المرآة لتدخل معها حتى صرخت نورسين: (ابتعدي عنها ابتعدي يا فتاة، إنها جايا.. إنها الشر إنها الظلام).

ولكن الأخرى دخلت في المرآة، وأصبحت هي ومن كانت في المرآة واحدة بتلك الهيئة التي كانت ترفضها، ووافقت عليها واحتبست بداخل المرآة معها.

فخرجت نورسين تصرخ وهي تقول: (حسنًا، لقد عرفت وفهمت أنني علَي أن أرى جايا وهي تغوي الناس.. هل على الجميع أن يستمع لها أخبروني الآن هل على الجميع أن يستمع لها مثلما فعلت أنا ودمرت حياتي بيدي وألقيت بنفسي في غياهب الجب).

لكنها وجدت شابًّا في إحدى الرؤوس واقفًا يضحك، وجايا واقفة خلفه فمسحت دموعها ودخلت إلى حيث مكانه، لقد كان يا إلهي! إنه أنس كان جالسًا أمام البحر كعادته يشتم هواءه العليل، ويشعر بالهدوء فاقتربت منه جايا: (شاب قوي مثلك ولكن للأسف لا يملك أقدامًا مثل الآخرين، يا له من شيء مشين).

فأجابها أنس: (وما المشين في هذا، إنها نعمة وهبني الله إياها وعلي أن أشكره).

– (أتشكر الله على أنه جعلك كسيحًا).

اغتاظ أنس وقال في غضب: (سأشكره وإن سلب مني حياتي كلها، إنه هو من وهبني إياها.. لقد وهبني عقلي ويكفيني هذا، وأنا أعلم أنه يريد لي الخير).

– (أتعلم يا أنس، يمكنك أن تكون أكثر قوة، أنا أعلم أنك تريد أن تكون عالمًا كبيرًا، ما رأيك في أن تقطع أقدام البشر حين تدخل كليه الطب كتجارب أقصد لربما تتوصل لطريقه تهبك أقدامًا).

– (أي جنون هذا.. أنا لدي أقدام وأنا سعيد بحياتي، لِمَا عليَّ أن أخرب حياة غيري؟).

– (لتسعد أنت.. استمع لي سأجعلك سعيدًا جدًّا أعدك).

- (وأي سعادة في جلب الأحزان للآخرين.. سأكون طبيبًا وسأجعل الجميع سعيدًا، سأبحث عن علاج لي ولهم، سأهبهم السعادة هذا ما سأكونه).

- (ولكن صدقني أنا).

- (ابتعد أيها الشيء الأحمق من هنا، ابتعد هيا اخرج من أحلامي اخرج).

فاختفت جايا وجلس أنس يستمتع بالبحر أمامه.. فتعجبت نورسين وفهمت لِمَا على أرض الأحلام أن تختار أنسًا! وقفت تنظر له من بعيد وتبتسم، لقد نجح أنس في اختبار فشلت فيه هي، لقد رفض جايا بل وطردها من أحلامه لقد نجح في الاختبار.

زاد إعجابها بذلك الشاب الذي وهبه الله قلبًا قويًّا يقوى على هزيمة الشر، وخرجت من المكان ووقفت تقول لنفسها: (إن كان أنس قد نجح في الاختبار وأنا فشلت فيه فلما على أنا أصل إلى هنا.. كان حري به هو أن يكون من تم اختياره).

ففتح الباب ودخلت الحارسة وهي تبتسم، نظرت إلى نورسين: (هل علمت ما كنت أريد إخبارك به).

أجابتها بحزن: (نعم، علمت أنني فشلت في الاختبار).

فضحكت الحارسة وأمسكت بيدها، ودخلت إلى أحد الرؤوس المفتوحة، والتي تحمل مكانًا يشبه حديقة الأزهار، لا بل إنه هو فتفحصته ووجدت نفسها وهي طفلة صغيرة تلعب فيه، فقالت لها الحارسة: (هذا المكان مهم لك أن تريه).

فوقفا كلتاهما ينظران، وكانت نورسين تلعب فاقتربت منها جايا: (هل تريدين اللعب معي).

ضحكت وأعطتها لعبتها: (نعم، تعالي نلعب سويًّا).

فكسرت جايا اللعبة ودمرتها، وقالت لنورسين الطفلة: (عليك أن تقاتليني لقد كسرت لعبتك..هيا).

فأخرجت نورسين الطفلة لعبة أخرى وقالت: (لا يهم معي غيرها، هيا نتشاطر الألعاب، فكسرت اللعبة الأخرى في غيظ، وهي تقول:

– (حسنًا كسرت الأخرى هيا، عليك أن تكوني أكثر شراسة مع العالم كله يا فتاة، أنت متسامحة جدًّا.. اغضبي، افعلي شيئًا).

فأجابتها وهي تلعب: (لا، لقد أخبرتني جدتي أن من يفعل شيئًا ليغضبك فلا تجبه أبدًا.. إنه أحمق لا يستحق الرد).

فاغتاظت جايا، وأمسكت منها لعبتها التي تلعب بها وأخذت تكسرها، فاحتضنت نورسين لعبتها وصرخت في وجه جايا: (اذهبي من أرض أحلامي، فأنا لن أكون شريرة أبدًا).

هرولت جايا منها وابتعدت وهي تقول: (أعدك أن أعود إليك يا نورسين، سأجعلك شريرة وسترين، سأجعلك تدمرين نفسك ومن حولك يومًا ما كما فعلت مع جدتك).

خرجت نورسين والحارسة من المكان الذي يبدو أنه عقل نورسين، وقد شاهدت لأول مرة تلك الحادثة مع جايا فنظرت للحارسة وقالت: (لقد نجحت في الاختبار وأنا طفلة صغيرة، وفشلت فيه وأنا كبيرة، كيف يعقل هذا؟!).

ابتسمت الحارسة: (هل أصبحت شريرة يا نورسين؟!).

– (لا، حقيقة لا أعرف، ربما أصبحت شريرة حين أوقعت أصدقائي فيما ليس لهم به علم).

– (لا نورسين، لقد نجحت في الاختبار لم تصبحي شريرة أبدًا).

– (ولكني استمعت لجايا وفتحت الباب).

– (الباب ذلك الفضول البشري الذي وقع فيه أبو البشر كلِّهم آدم، ألم يقع آدم قبلك في الاختيار؟! واختار ما نهاه الله عنه؟).

فسرحت نورسين في كلامها وهي تفكر ثم قالت: (أنا لا أفهم شيئًا!!).

فأجابتها الحارسة: (الاختيار! لقد وقعت في الاختيار يا عزيزتي، واختار فضولك أن يعرف ما الذي هناك، ولكنك لم تفعلي الشر، ولم توقعي أصدقاءك معك في الشرور أبدًا، كلهم كان لهم دور كبير في وصولك إلى هنا، كل منهم تم اختياره حتى جدتك كان اختيارَها، لكنها فشلت في المهمة التي نجحت أنت فيها فاستولت عليها جايا.. استمعي لي جيدًا، الممر هنا بوابة لكل العوالم التي تحيط بنا، إنه يدخلك إلى العقل الباطن، يدخلك إلى المكنونات التي لم يصل إليها أحد من قبل.. ولكن الأهم من ذلك الممر هو الطريق إلى عقل جايا نفسه).

وأمسكت وأشارت بعيدا إلى راس مفتوح مظلم تماما وهي تقول:

– (هذه اكبر مهمة للممر.. رغم انني الحارسة الامينة له الا انني لم اتمكن أبدًا من دخول عقلها وحده الذي اجتاز الاختبار ووصل إلى المرحلة الاخيرة هو من يمكنه الدخول إليه).

فنظرت نورسين إلى المكان الذي تشير إليه الحارسة، واقتربت منه وبداخلها مشاعر غضب وغيظ، وكثير مما لم تستطع وصفه، حتى مدت قدمها ببطء ودخلت إليه.

ما أن دلفت إليه حتى أحست بهدوء قاتل، مكان بلا صوت حتى حينما كانت في أرض الواقع لا تسمع، كانت الذبذبات تهز كيانها فتشعر بالتحركات والانفعالات حولها ولكن هنا.. لا شيء ألبتة أغلقت أذنيها وكأنها تريد العودة إلى حيث الواقع، ربما تشعر بتلك الذبذبات مرة أخرى، حاولت أن تكبت حواسها؛ السمع، اللمس، حتى الإبصار، أغلقت عينيها ولكن ما زال اللا شيء هو المسيطر هنا.

ثم تركت العنان لحواسها من جديد أن تعمل، وجذبت أقدامها تجرها في الأركان ربما تعثر على شيء ما، لكن لا شيء سوى ذلك الصمت القاتل، والظلام الغريب حولك، الذي من الغرابة أن تري منه.. نعم ظلام يجعلك ترين أنها أمور جديدة عليها، فكأنما ضوء صبغ باللون الأسود فتكحل المكان بظلام ترى من خلاله القليل.

كادت أن تعود، ولكن حينما نظرت خلفها كانت لا ترى شيئًا، وكأنما حبست داخل رأس جايا.. فكرت قليلًا ربما هناك وسيلة ما لمعرفة أي شيء في هذا المكان القاتم فأخذت تنادي بعد أن تشجعت من خوفها فهي لا تعلم مدى قوة جايا بعد: (جايا، أظهري نفسك يمكنني أن أشعر بأنفاسك الكريهة حولي).

فسمعت صوت ضحكات تقترب منها، وبكل تعالٍ وتفاخر قالت جايا:

– (نورسين أهذا أنت.. أرى أنك وصلت للمرحلة الأخيرة يا فتاة، هنيئًا لك الوصول، وعزائي الحار لك في فقدك لنفسك، لأنني لن أسمح لك بالخروج من هنا مرة أخرى).

ثم تعالت ضحكاتها فاقتربت منها نورسين لتنظر إلى وجهها الذي كان ممسوحًا مثل تلك الأطفال التي قابلتهم في بداية دخولها الممر، كانت جايا بلا وجه تشبههم كثيرًا، وترتدي فستانًا يشبه التي ترتديه الحارسة، ولكن الاختلاف في أن جايا كانت تحوم من حولها نيران لهيبها، مخيم كلهيب الحمم البركانية.

نظرت إليها نورسين بتمعن، ولم تخف ثم قالت: (إذن هكذا تبدين.. ولكن لما تشبهين تلك الأطفال الصغيرة التي تبدو عليها البراءة حين قابلتها؟ أنت دميمة القلب لا تشبهين قلوبهم النقية أبدًا).

– (ولن أشبهها، كنت يومًا من الأيام مثلهم أعيش في أرض الممر في سعادة حتى علمت قوتي، حتى إنني أقوى من بني جنسي نفسهم، وعلمت أيضًا ضعف جنسك، وأنَّ باستطاعتي أن أسرق منكم كل شيء وابني به مملكتي الخاصة التي أسيطر بها على كل شيء، ممكلة تفوق كل التوقعات التي يفكر فيها أي أحد، مملكة بنيت من نقاط ضعفكم لتكون نقاط قوتي أنا).

– (تقصدين بنيان أسس على الخراب؟!).

– (خراب لبني البشر وعمران لي).

– (وهل أنت سعيدة يا جايا الآن؟!).

– (ومن قال: إنني لست سعيدة أنا أتحكم في كل شيء حولي، أتحكم فيك أنت شخصيًّا).

– (وإن كنت تتحكمين في: كيف وصلت أنا للمرحلة الأخيرة؟).

سكتت جايا عن الرد وقد اشتعلت غيظًا، ثم التفَّت حول نورسين وقالت:

– (لا تظنين أبدًا أنك ستهزميني.. لن أسمح لك، ثم إنك ضعيفة يا فتاة، أنت نكرة... لا شيء.. لا تنسين كيف يكره عالمك بنو جلدتك ممن أصيبو بأمراض لا يد لهم فيها مثلك ويحقرون من شأنهم).

صفَّقت لها نورسين: (انتهيت من سخريتك يا جايا أم ما زال في جعبتك بقية؟ استمعي لي جيدًا: أنا قوية جدًّا، أنا ومن مثلي، انظري إليَّ لقد وصلت إلى عقلك الباطن).

ضحكت جايا: (لن تستطيعي فعل شيء).

اقتربت منها نورسين: (أتعلمين! لم أعرف لما كان على الحارسة أن تجعلني أدخل بعض العقول وأرى ردَّات فعل أصحابها حين طاوعك أحدهم ورفضك الآخر إلا الآن.. أتدرين لم يقاومك من استكان لك، بل وقفت أنا أيضًا عاجزة لم أساعدهم على تركك لقد فهمت الآن هكذا نحن البشر نسقط أنفسنا في الوحل حين يكون باستطاعتنا مساعدة غيرنا، ونكتفي بالفرجة والصمت.. لقد فهمت إنني لن أصمت حين أرى الخطأ، ولن أساعد بصمتي فيه أبدًا.. علمت أن عليَّ مقاومتك وسأفعلها. أنت لا شيء يا جايا، أنت مجرد كائن ضعيف يقتات على فتات الآخرين، أنت النكرة هنا يا جايا).

نظرت إليها جايا بخوف وريبة، وحاولت أن تتلاشى الثقة والقوة الرهيبة التي تخرج من نورسين الآن والتي لم تتوان عنها بل تزداد شيئًا

فشيئًا، ثم تقهقرت خطوة واحدة للخلف وهي تقول: (أتعتقدين أنه يمكنك هزيمتى بشعاراتك الفارغة).

فأجابتها نورسين بكل ثقة: (لا بل بقوة عقلي وبأحلامي التي لن أتخلى عنها، أتدرين شيئًا؟).

ثم هرولت بسرعة وأمسكت بالكتاب، والصفحة مفتوحة بداخلها المفتاح الذي فتح كل تلك العقول، ودخلت بالكتاب إلى عقل جايا، وأمسكت المفتاح وخلعته، فانطفأ كل شيء حولها، ولكنها ما زالت بداخل عقلها ثم أدخلته مجددًا فانفتحت كل العقول بداخل عقل جايا، عقول كثيرة بداخل عقل واحد، كم هائل من الأصوات والصرخات والضحكات كما كانت تستمع حين كانت تمر على أرض الممر، ولكن هذه المرة أصبحوا جميعًا بداخل عقلها الأصوات كلها الآن بداخل رأس جايا الصامت الذي كان هادئًا يترقب ويصطاد الناس بحذر، تعالى الضجيج وخرج من الرؤوس الكثير ممن دمرتهم جايا، وسرقت أحلامهم وحياتهم، أناس كثيرون لا يعدون حتى، اقتربوا منها وهي تتقهقر إلى الخلف تصرخ وتصم أذنيها عن الأصوات العالية التي يكاد عقلها ينفطر منها وتقول: (كفى لا أتحمل، سينفجر عقلي، كفى).

ابتسمت نورسين وتنفست الصعداء وهم ينقضُّون على جايا، فتركتها وخرجت من عقلها، وأمسكت بالكتاب وأخرجت منه المفتاح فانغلق كل شيء حولها، كانت الحارسة واقفة مبتسمة تنظر إلى نورسين بكل فخر ثم قالت: (أحسنت صنعًا يا فتاة).

بادلتها نورسين نظرة السعادة وهموا بالخروج وفي طريقهم سألت الحارسة: (أخبريني كيف كانت جايا من الأطفال الطيبين هؤلاء ثم صارت وحشًا هكذا).

ابتسمت الحارسة وهي تمضي ونورسين خلفها ثم قالت: (إنها قصة طويلة سأقصها عليك ونحن نخرج من هنا.. دائمًا ما يعصي الشيطان أوامر الله ويريد نشر الفساد).

وأثناء ذهابهم بدأت تقص الحارسة القصة على نورسين، والتي فجأة وجدت نفسها قد أفاقت من النوم وعادت إلى أرض الواقع، نظرت حولها إذ بها في سريرها مجددًا وكأن شيئًا لم يكن.. كاد عقلها يطير هل كان كل هذا حلمًا، هل كانت طيلة هذا الوقت هنا، ولم يحدث شيء ولم تخرج من مكانها، وظلت نائمة على سريرها؟ لكنها وجدت بجوارها شيئًا غريبًا جدًّا.

* * *

الفصل الثامن

(صناع الحياة)

أفاقت نورسين من النوم وهي تتحسس نفسها هل كل هذا كان حلمًا انتفضت من على سريرها وهي تتفحص الغرفة، إنه يوم أن تركتها، كل شيء في مكانه لا شيء تغير، ولكن ما الذي حدث؟ لا يعقل أن يكون كل ما رأته حلمًا.

فجلست تتنهد، وقد جال بخاطرها أفكار لا تحصى حتى نظرت بجوارها فوجدت.. وجدت المفتاح ذا القلب الماسي، إنه بجوارها، حملقت فيه في زعر وهي تتفحصه، لم يكن ما شاهدته حلمًا لقد كان حقيقة جدًّا، فأمسكت بالمفتاح بسرعة، وبحثت عن الكتاب فوجدت كل شيء بالكتاب واضحًا وجليًّا كأنما البدر في يوم تمامه كما رأته تمامًا في الممر.

ابتلعت ريقها وهي لا تدري ما الذي عليها فعله، لقد وكل إليها الأمر الآن، أمر الكتاب أنه لأمر جلي عظيم، ما الذي عليها فعله الآن، فتحته فوجدت في الصفحة التي يوضع بها المفتاح كلمات كتبت بخط اليد تمعنت النظر وقرأت ما فيها: (عزيزتي نورسين: أظن أن مهمتك قد اكتملت في أرض الأحلام، ولكن مهمتك في أرض الواقع لم تكتمل

بعد، لقد تركت لك المفتاح وكل شيء إنه ملكك الآن، أعلم أنك ستصلحين الأخطاء.. وهذه المرة ستختارين بعناية.. المخلصة لك حارسة الممر).

أمسكت نورسين بالكتاب وقد انهال عليها الصمت حين قرأت ما كتبت فيه، كان كل ما يجول في خاطرها في تلك اللحظة: ما هي تلك الأخطاء التي عليها إصلاحها في أرض الواقع، كانت قد شعرت بالأمان أخيرًا، إنها عادت من أرض الأحلام، وإن واقعها عاد كما كان ولم يتغير، ولكن يبدو أن هناك أمورًا عليها إكمالها، نظرت للصفحة وللمفتاح ففكرت وهي تقرب المفتاح منها ماذا سيفعل هذا المفتاح في أرض الواقع؟! هل له تأثير عليه كما له في أرض الأحلام؟!

تنفست بهدوء وخوف وريبة في آن واحد ثم وضعته في تلك الفتحة الموجودة بالصفحة كما فعلت بالممر فانفتح ولكن هذه المرة فتح لها فجوة دائرية أمامها لا ترى ما بداخلها جيدًا، فوضعت رأسها بداخل الفتحة بحذر وبطء كي ترى ما الذي تخفية خلفها تلك الفجوة الغريبة، فالفضول يأكلها لتعرف ما الذي سيفتحه المفتاح في أرض الواقع.. أمعنت النظر جيدًا، لقد كانت حديقة الأزهار، نعم إنها هي حقًّا، ما أن رأتها حتى ألقت بنفسها بداخلها بسرعة وهي تجري في الأنحاء وتنادي: (جدتي.. أنا هنا لقد عدت).

قابلتها الجدة بالترحاب والأحضان، فنظرت إليها نورسين وأشارت إلى الفجوة الدائرية: (انظري جدتي: لقد نجحت في الاختبار، لقد هزمت جايا، وفتحت لي فجوة أدخل فيها إلى أرض الأحلام وأنا

مستيقظة، هيا جدتي تعالي معي اخرجي منها إلى أرض الواقع، يا لها من أمنية تحققت).

فأمسكت الجدة بيدها والأخرى تحاول سحبها للخروج من الفجوة وابتسمت لها: (عزيزتي أنا أنتمي إلى أرض الأحلام، لا مكان لي في أرض الواقع، لا يمكنني أن أعود معك).

– (ولكن يا جدتي الفجوة أمامنا وأنا دخلت منها، ويمكنني الخروج على ما أظن ويمكنك أنت أيضًا).

–(اهدئي عزيزتي لا تجعلي الحماس يأخذك بعيدًا عن الواقع.. لقد فتحت لك هذه الفجوة لإصلاح حياتك).

– (أتقصدين أنه يمكنني إصلاح الماضي و...).

– (لا يا عزيزتي الماضي قد ولى وقضى نحبه، أما الحاضر هو الذي بين يديك الآن يمكنك تغييره إن كانت لك إرادة حرة قوية).

– (ولكن يا جدتي كنت أعتقد أنه يمكنني أن أغير ما سبق، وأن أعيد والدي إلى رشده، وأن أغير حياتنا المريبة هذه إلى حياة هادئة مطمئنة).

– (فكري قليلًا يا ابنتي يمكنك فعلها).

قالتها وقد جعلت نورسين تفكر ولا تدري ما الذي عليها فعله، لوهلة شعرت بالحزن، كيف لامتلاكها سلاحًا قويًّا كهذا يجعلها تدخل إلى أرض الأحلام وهي غير نائمة، بل ويجعلها تتحكم فيه، وتجلبه إلى أرض الواقع؟! كيف لهذا السلاح ألا يساعدها في استعادة حياتها من جديد؟! خرجت من تلك الفجوة وقد ازدادت حيرة كانت تعتقد أن بخلاصها من جايا وشرورها ستستطيع أن تصلح كل شيء، ولكن يبدو

أن الواقع أصعب من إصلاحه، بل يبدو أن محاربة أرض خيالية بكل ما فيها من غرائب قد تهلكك أهون من محاربة واقعنا المرير.

جلست تفكر قليلًا ثم تذكرت أنسًا فارتدت ملابسها وخرجت مسرعة تبحث عنه، فوجدته جالسًا في مكانه المعتاد، نظر لها بهدوء ولم يقل شيئًا، اقتربت منه وهي تتلفت فيه، هل كان حقًّا معها؟ هل يتذكر كل ما حدث؟ كانت تحدق فيه يمينًا ويسارًا، فوجد حيرتها وبادلها النظرة الحائرة ولكن يبدو أنه يسخر منها: (أتعتقدين أنني لا أتذكر هذا العالم الغريب الذي أوقعتنا فيه وتركتني أنا وتلك الدعسوقة الغريبة نعود إلى أماكننا دون أن نعرف ما الذي حدث لك، حسنًا كدت أموت رعبًا حين اختفيت. حمدًا لله أنك بخير).

تنفست الصعداء حين قال أنس هذا أنه يتذكر، اقتربت منه وجلست بجواره وكانت تكتب له كعادتها فوق الرمال: (إذن، أين الدعسوقة الآن؟).

– (حقًّا لا أدري، أفقت وقد وجدت نفسي في نفس اليوم الذي نمت فيه، وكأن شيئًا لم يكن، وكأنني لم أشاهدك وأنت تتغيرين أو حتى حين كنت أسير وراء أخيك وأجده يحدث جايا).

انتفضت نورسين من مكانها: (ربما غير أخي شيئًا في الواقع قبل أن أقضي على جايا، علَيَّ أن أتحرك بسرعة لأعرف ما الذي حدث لعائلتي!).

نادى عليها أنس وهو يجر كرسيه: (انتظري نورسين، بعد اختفائك أعطتني الدعسوقة هذه لأعطيها لك، ووجدتها بجواري حين صحوت من النوم، حقيقة هذا ما جعلني أصدق أن ما حدث كان حقيقة).

مد يده إليها وأعطاها زهرة صغيرة من تلك الأزهار التي تنتمي إلى عالم الذكريات الغريبة، لقد كانت زهرة صغيرة جميلة لونها بنفسجي تبدو وكأنها لا تذبل أبدًا.

قال وهو يعطيعها إياها: (إنها زهرة الزنبق رائعة الجمال، هي من ذكريات الدعسوقة، أخبرتني أن أهديك إياها حين أجدك، ومن ثم غادر كل منا إلى موطنه).

أخذتها منه ومن ثم قربتها من أنفها، وتنفست بهدوء، وقد أغمضت عينها وابتسمت وهي تستنشق العطر ثم فتحت عينها بعد أن شاهدت ذكرى جميلة).

لقد شاهدت يوم أن قابلت الدعسوقة في المكتبة لأول مرة، وكانت تخاف منها). ذكرى أشعرتها بالضحك والسعادة حين كانت مستجدة ولا تعرف شيئًا وحتى أنها كانت خائفة من صديقتها الدعسوقة.

شكرت أنسًا وتركته وذهبت تبحث عن عائلتها.. كانوا على الشاطئ، وكان نادر جالسًا بجوار أخيه وعيناه لا ترتفعان عن فيروز التي لم تكن تعيره أدني اهتمام، كان يفرك يديه ويتمتم بكلمات غير مفهومة، لكن نورسين قرأت شفاهه كان يقول: (سأريك يا والدي من منا الأحق بها وبأموال أبيها).

فوقفت من بعيد ولم تقترب، وقد كانت تراقب نادرًا عن كثب حين قام من مكانه وهرول ناحية غرفة والده بالفندق، وهي تتبعه مثلما فعل أنس، فوجدته يخرج مسدس والده ويتفحصه، وقد ملأ الغل والحقد قلبه.. فصعقت وقد فهمت ما يجول في خاطره، فهرولت مسرعة بعد أن اطمأن هو لأن السلاح ممتلئ ووضعه في مكانه وخرج،

أما هي فقد أسرعت إلى والدها تحاول أن تناديه لكنه نظر إليها نظرة لا مبالاة ولم يهتم، فاغتاظت منه وأمسكت بورقة وكتبت فيها بعض الكلمات، ومن ثم وقفت أمام الكل بمن فيهم والدها: (والدي أريدك الآن أرجو أن تستمع لي كما استمعت إلى جايا من قبل).

نظر لها بغضب وغرابة في آن واحد وأسرع ناحيتها يشدها من ذراعها وابتعد عن المكان، ومن ثم صعد بها إلى غرفتها وألقى بها وقد تطاير الشرر من عينيه وهو يقول لها: (ما الذي تعرفينه يا فتاة، أتذكر اسم جايا هذا، لكني لا أذكر عنها شيئًا.. ما الذي دفعك لكتابة هذا أمام الناس وإحراجي، ألن تكفي عن أفعالك المشينة هذه؟!).

ففكرت لحظة ثم أمسكت الكتاب بسرعة، ووضعت المفتاح فانفلقت الفجوة أمام الأب الذي التصق بالحائط ذعرًا مما رآه، ثم دخلت أمامه ونظرت إليه وهي تشير بيدها لكي يتبعها، فابتلع ريقه وهو خائف ولا يفهم ما الذي يحدث، أو كيف لابنته أن تفتح فجوة إلى مكان آخر، بل ربما عالم آخر وقبل أن يضع قدمه كانت الجدة بجوارها واقفة تبتسم كعادتها، ثم نظرت إليه نظرة أم حانية وقالت: (مرحبًا ولدي كاظم).

ارتعد أكثر من ذي قبل: (أمي! ولكن أنت ميته ما الذي يحدث؟).

فردت نورسين: (حسنًا يا والدي، أنا الآن في أرض الأحلام، يمكنني أن أتحدث ويمكنك أن تستمع إلى صوتي أرجو منك أن تدخل إلينا).

توجس في نفسه خيفة، وكاد أن يهرب من الحجرة لكن الجدة قالت: (تعالى يا كاظم، لي معك حديث طويل).

فدخل إلى الفجوة ببطء وحذر وخوف، وهو يتفحص المكان الذي رغم جماله إلا أنه لم يكسر الرهبة بداخله، أمسكت به الجدة واحتضنته:

- (والدي كاظم، كم اشتقت إليك).

- (أمي، أنت ميته ما الذي يحدث؟!).

- (نحن لسنا في أرض الواقع، نحن في أرض الأحلام، أنا لست حقيقة الآن ولكن ما ستشاهده الآن هو حقيقي جدًّا).

وأمسكت بالزهرة التي أعطتها من قبل إلى نورسين وجعلته يشاهد تلك الذكرى التي مسحت من ذاكرته حين كان صغيرًا وشاهد جايا وقبل بشروطها ودمر والدته وحياته.

وقف مصعوقًا لا يصدق ما شاهده بعينه، وهو يمعن النظر في تلك الذكرى ومن ثم قال: (لكني لا أتذكر منها شيئًا يا أمي.. حقًّا لا أتذكر أي شيء، هل أنا فعلت بك هذا هل أنا سلبت شبابك وحياتك منك.. أنا).

وأخذ يبكي كطفل صغير فاقتربت منه: (أنا أسامحك يا ولدي).

- (لا أمي أنا دمرتك أنا مجرم، لقد تذكرت الآن ما فعلته لا أصدق أنني فعلت بك هذا.. يا إلهي يا أمي أنا مجرم حقًّا).

ربَّتت على كتفه، فحنان الأم لا يمكن وصفه أبدًا، وأمسكت بيده وهو يبكي، واقتربت من جدول الماء الذي تسقي منه زرعها، وجعلته ينظر إلى صورتهما معًا في الماء: (انظر يا ولدي ما مضى قد مضى، المهم الآن حاضرنا الذي بين يدينا.. انظر إلى جدول الماء جيدًا).

فمسح الدموع من وجهه، ونظر أمامه فوجد صورتهما فقد اختفت وظهر بدلًا منها ولده نادر يشحذ مسدسه ويملأ فوهته الفارهة برصاصات عدة، وينظر إلى صورة والده ويقول في تحدٍ: (الآن يا أبي لقد كنت تفضل أخي طيلة حياتك، هو فقط كل ما تحب، وأنا لا شيء، سأفرغ الرصاصات في قلبه، ولن يعرف أحد أنني الفاعل بل ربما يظنون أنه أنت لأنه مسدسك).

جُنَّ جنون كاظم وأخذ ينادي: (نادر أيها المجنون، عد إلى هنا، إنه أخوك يا ولدي.... يا إلهي!!! انتظر).

أمسكت أمه بيده وقالت: (الآن يا ولدي يكفي ما فعلته من أخطاء عليك أن تصلحها الآن، ما مضى قد مضى، والحاضر بين يديك يا كاظم، أنا أسامحك على ما فعلته، كنت صغيرًا ولا تدرك ما يحدث، أما الآن فأنت كبير تعي جيدًا ما عليك فعله، هيا عد إلى أبنائك وأصلح من شأنك، أنا أثق بك يا بني، وتذكر جيدًا أن الله أعطاك جوهرة ثمينة هي تلك الفتاة التي تقف أمامك الآن، إنها ابنتك نورسين، لديها أجمل قلب رأيته، حافظ عليها لن أسامحك إن أصابها مكروه).

– (أعدك يا أمي أن أصلح من أخطائي، لقد كنت غبيًّا حين بحثت عن النقود، الآن أولادي في خطر، وحياتي التي اخترتها أيضًا، والتي دمرت حياتك من أجلها، قد حان وقت القصاص لها.. سيقتص الله مني ويدمر حياتي كما دمرت حياتك).

– (لا يا ولدي، الله حنون حين تخطئ وتتوب، عد إليه إنه الباقي الوحيد في كل شيء، سيغفر لك خطيئتك، فقط اعترف بذنب وتب إليه، إنك كنت من الخاطئين، وسيقبلك حتمًا لن يردك أبدًا).

قبَّل يدها وهرول سريعًا ووراءه نورسين، كان يجري كأنه شاب قد عادت جذور الشباب إلى عروقه التي أذبلها العجز تاركًا الفجوة قد أغلقتها نورسين وتبعته، فوجد ولده يخرج من غرفته التي شاهده فيها، والشرر يتطاير من عينيه، وهو يخبئ المسدس في جيبه، فهرول وراءه لكنه لم يلحقه حتى إنه نادى عليه ولم يسمعه الآخر، فأسرع حتى وصل إلى غرفة ابنه الآخر عاصم، والذي دخلها الابن الأصغر والشرر يتطاير من عينيه، فأمسك بالمسدس ووجهه في وجه أخيه وقبل أن يضغط على الزناد كان الأب قد انقض كالصقر عليه، وأمسكه منه وهو يصرخ ويحتضنه: (لا ولدي، لا تخطئ خطئي، لقد كنت أحمق حين ربيتكم على حب المال، ولم أملأ حب الخير في قلوبكم، أرجوك يا ولدي لا تفعل، كفا ما أنا فيه).

فوقف نادر وعاصم في ذهول من الوالد، وصدم الأخ الأكبر وقال: (هل كنت تريد قتلي يا أخي؟!).

فبكى الأب: (لا، بل أنا من كان يريد قتلكم، لا بل أنا من قتلكم بأفعالي.. فوقع مغشيًّا عليه).

صرخ الأبناء وكاظم لا يشعر بمن حوله إلا ضباب وأصوات صريخ، وهو يحمل على الأكتاف إلى المشفى، وهناك بدأ يفتح عينيه رويدا حتى وجد أبناءه كلهم بجواره، و فيروز ووالدها وأخيها أيضًا، كان يتنفس بصعوبة وهو يقول: (أرجوك خذ ابنتك وارحل يا مخلوف، أنا لا أرحب بكم بعد الآن منذ هذه اللحظة إن أحياني الله سأعوض أبنائي عن كل الخسائر التي سببتها لهم، وأولها هي معرفتي بكم).

فرد عليه والد فيروز بغيظ وهو يمسك بأبنائه ويغادر: (ستندم يا كاظم على فعلتك هذه).

ثم خرج وترك الغرفة، أما هو فقد قال وهو مستلق على سرير المرض: (والله، لقد ندمت، والآن أستغفر ربي أن يغفر لي خطيئتي.. وأنت يا ابنتي الجميلة نورسين سأعوضك عن كل ما سببته لك من أذى نفسي).

فتح ذراعيه لها فأحتضنته وهو يبكي، وأمهم واقفة معهم تبكي دموع الفرح لا تصدق ما يحدث أمامها، لقد تغير كل شيء وتحول كاظم أخيرًا إلى أب حنون، وترك تلك الأفكار الهالكة التي كان يعيش عليها في السابق، أما أبناؤه فقد بدأوا ينصاعون إلى أوامر والدهم الذي حين قام من مرضه بدأ يربيهم ويعلمهم ما فقدوه في حياتهم، رغم أنه فقد أمواله حين غدر به والد فيروز وأصبح رجلًا بسيطًا إلا أن السعادة لا تشترى بالمال، فقد كان معه ما يكفيه هو وأبناؤه في أن يعيشوا بسلام وحب أخيرًا.

أما نورسين فقد كان عليها أن تطمئن على أبطال قصتها، من ساعدوها في أمورها كلها؛ رفقاء وصحبة الخير: على، ويوسف، وأنس.. لم تعرف ما الذي جرى ليوسف بعد أن تركته في عالم الأحلام، فذهبت إلى والدته والتي كانت تبكي بحرقة وترتدي ملابس سوداء، كان أنس معها حين ذهبت إلى أم يوسف، لقد كان يريد أن يطمئن عليه أيضًا، فسألها ما الذي حدث؟! كانت الدموع تنهمر من عيونها وكأنها سيل أحزان لا ينقطع فأمسكت بصورته واحتضنته: (لا أدري يا أولادي ما الذي صار له، كان معافى وسليمًا، ذهبت لأجعله

يصحو من النوم ليتناول طعام الإفطار لكنه لم يصحوا لقد كانت نومته الأخيرة.. وأجهشت بالبكاء الشديد، فصمتت نورسين وتبادلت نظرة مرارة وقسوة وحزن مع أنس الذي طأطأ رأسه في خجل، وهما يشعران بداخلهم أنهما قد قتلا يوسف، فقال أنس لأم يوسف:

– (أنا آسف من أجله، لقد كان ولدًا قويًّا وشجاعًا، لا تعلمي ما الذي فعله يوسف معنا إنه بطلنا الحقيقي).

فنظرت نورسين مرة أخرى إلى أنس، وابتلعت ريقها وأغلقت الباب الذي كانت قد تركته مفتوحًا حين فتحت لهم أم يوسف ولم تغلقه هي الأخرى خلفها، وقد جلست تنتحب وتبكي، فأمسكت نورسين بالكتاب والمفتاح وفتحت الفجوة لأم يوسف، وقالت لها بلغة الإشارة: (لقد علمت الآن لما علي أن أملك هذا المفتاح.. ورغم أن حياتنا الدنيا محدودة إلا أن الفرص التي يهبنا الله إياها علينا أن ننتهزها بكل ما أوتينا من قوة، وها أنا أقولها لك، انظري هنا ستجدين ريح يوسف، وإني لك من الناصحين.. لقد كان أمينًا وفيًّا لقد كان بطلنا الحقيقي، لقد صنع لنا جميعًا الحياة).

مسحت الأم دموعها، ونظرت من الفجوة وأصابتها نشوة الفرح وهي تصرخ:

– (يوسف.. لقد ردك الله لي).

ابتسمت نورسين لأنها عرفت قيمة الكتاب والمفتاح، إنها تختار ما تشاء الآن إن فتحت أرض الأحلام، فأمسكت بالمفتاح والكتاب وأعطته لأم يوسف وقالت لها: (لم أعد أحتاجه أستطيع أن أغير واقعي بالخير واليقين والثقة بالله إنك أكثرنا حاجة إليه، يمكنك أن تكوني

مع يوسف الآن إلى الأبد. إنه هنا بلا أمراض، سليم معافى، أتمنى لك السعادة الدائمة).

وتركتها وذهبت هي وأنس ليطمئنا على صديقهم علي، والذي ما أن رآهم حتى أخذ يتحدث بتأتأة وهو يهرول ناحيتهم بسعادة: (أنننس نوووورسين.. أين الدععععسووووقة؟).

ابتسم له أنس: (في أمان يا صديقي الجميل).

فأمسكت نورسين بورقة وأعطتها له وأخذها، هو كان يقرأها بصعوبة لكنه يستطيع القراءة.. وحين قرأها لم يصدق ما فيها وأخذ يرقص فرحًا: (حقًّا ههل قَبَل الشيييف أن أعععمل معه.. هل أنا أسسسستطيع أن أكون طاااهيًا ماااااااااااهرًا الآن؟!).

قال أنس ما أرادت نورسين أن تقوله بعد أن تترجم إشارتها: (نعم ستكون أعظم طاهيًا في الدنيا يا صديقي).

وتركوه وذهبوا في طريقهم كانت لحظة الوداع بين أنس ونورسين حين لملم حاجياته وذهب إلى المطار، وهي من ورائه تحاول أن تواري حزنها، فوقف وأمه خلفه وهو يقول: (أعدك يا نورسين أنني سأعود طبيبًا كبيرًا سأجد العلاج الذي لن يجعل أحدًا مريضًا.. ولن يجعل أحدًا عاجزًا مثلنا، لن نكون سد خانة في حياة أي شخص، لن أسمح بأن يُنظر إلينا هكذا).

ابتسمت له نورسين: (لسنا سد خانة يا أنس.. أنت تعلم ذلك جيدًا، ولا يهم نظرة الناس لنا، المهم نظرتنا لأنفسنا، إننا أقوياء يمكننا أن نغير الواقع إلى الأجمل، يمكننا أن نبدل السواد إلى قلوب نقية، اعمل على هذا، وأنا هنا سأنتظرك حتى تعود).

– (أعدك يا نورسين أنني سأفي بوعدي).

– (وأنا أثق بك يا أنس.. اعلم جيدًا أنك تفي بوعدك، لقد فعلتها بالسابق ولن تتخلى عني ولو بعد حين).

– (الوداع يا صديقتي).

– (الوداع يا صديقي سأنتظرك).

غادر أنس المطار ومسحت نورسين دمعة كادت أن تسقط على وجنتيها، ثم أعقبتها بابتسامة وهي تعود إلى بيتها البسيط وعائلتها السعيدة، والأجمل حين وجدت الخطاب الموجه إليها من كلية الفنون الجميلة: (إلى الطالبة نورسين لقد أبهرتنا رسوماتك الرائعة وخاصة تلك اللوحة التي أسميتيها (عالم الأحلام)، لا نجد لجمالها وصفًا لقد تم قبولك في كلية الفنون الجميلة بجامعة القاهرة مرحبًا بك معنا).

تمت

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الأول: منحة ٥

الفصل الثاني: الأحلام ١٧

الفصل الثالث: خلف الباب المغلق..... ٣٥

الفصل الرابع: أرض التيه ٤٩

الفصل الخامس: الانعكاس ٦٩

الفصل السادس: الممالك الست ٨٧

الفصل السابع: الممر..... ١١٩

الفصل الثامن: صناع الحياة..... ١٣٧

* * *